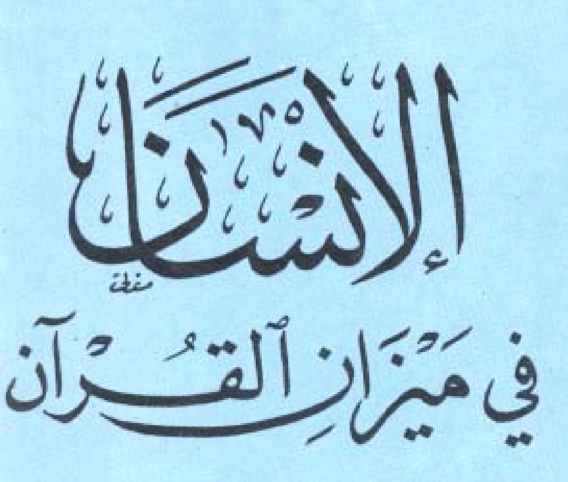
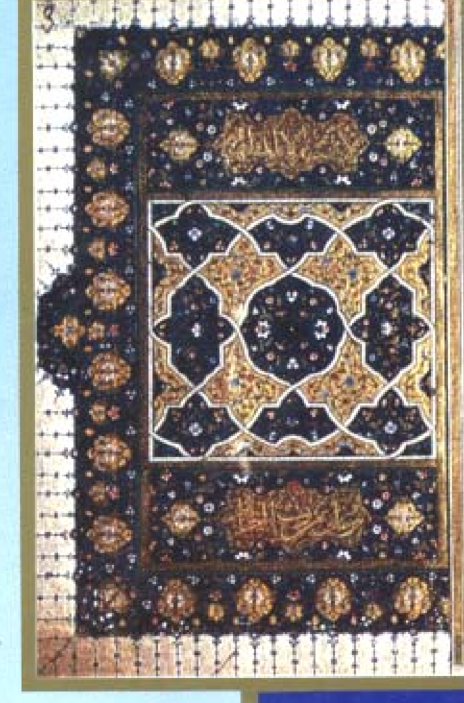


حسن الباش



منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية - طرابلس

الإهداء

إلى كل إنسان انتفعٍ بكتاب الله

فعبد ربه ديناً ودنيا

مقدمـــة

خَلْقُ الله للإنســـان معجـزة ، تمامـاً كمعجـزة خلق السمـوات والأرض ومـابينهـما ، لم يخلقـه عقـلاً مجرداً وقال له فكر وتدبر ، وسر في الأرض والبحـر واصعـد الجبـال واهبط إلى السهول ، ولم يخلقه روحاً نورانياً وقال له كل واشرب بلا فم وأسنان ومعدة ، ولم يخلقه نفساً وقال له امتنع عن الملذات ولاترغب ، ولم يخلقه جسداً بمفرده وقال له أحب واكـره وفكـر واعبـد . خَلْق الله للإنسان معجزة لأن الخلق متكامل ، تتفاعل أجزاؤه ببعضها ليكون هو كذلك . خلقه جسداً وروحاً ونفساً وعقـلاً وحـدد له أطر التفكير والوجدان وبين له حدود جسده وضوابط عقله ونفسـه ، وسـار بهذه المخلوقـات كلها ليفكر ويأكل ويحب ويكره ويميز الخبيث من الطيب ، ومن ثم ليعرف أن داخل الجسد قوة تحرك وتوقف إذا ماأريد لها . .

ومن قال إن الإنسان جسدٌ فقط فقد تاه في الترابيات الدونية ، ومن قال إن الإنســان روح فقـط فقد عاش في عالم الأنوار الوهمية وراح يعـذب الجسـد تعـذيبـاً شنيعـاً حتى وصـل به الحد إلى التخلص منه بالانتحـــار ، ومن قال إن الإنســـان عقـــل فقـــط فقـــد عاش في عالم

المجردات والفلسفات والمثل العقلية التي لاوجود لها في الأرض إلا من خلال الجسـد . ومن قال إن الإنسـان نفس فقط فقد انحدر في الهوى والميـول الفـوضـويـة التي لاحـدود لها ولاتنظيم ولانظـاماً والتقى بعالم الحيوانية والشهوات القاتلة .

ولم يكتفـوا بذلـك فراحـوا يؤالفـون بين الجسد والنفس فالتقى الموجه نحو الشر مع مادة هذا الشر وانتهت عندهم مهمة الإنسان عند هذه الحـدود فضـاع الجسـد وضـاعت النفس . ورفض آخـرون هذا التـآلف الضـائـع فآلفوا بين العقل والجسد فعذبوا النفس وقهروا جميع عواطفهـا وكبتـوهـا وقمعوها ظناً منهم أنها النزّاعة دوماً نحو الشر فجفّوا وجفّت معهم نفوسهم . .

لذلك كان خلق الإنسان معجزة . .

روح توفر الحركة الدائمة في كل خلية من خلايا الجسد ، دماغ فيـه ملايـين الخليـات ، وشـرايين لو أوصلوها ببعضها لفاق طولها كل تصـور ، روح تحرك كل شيء في العقـل والجسد والنفس ، تلفّ هذا الكيـان بأسـرار مدهشـة ، هي المـرجـع في كل شيء . . فلا حركـة للجسـد بدونهـا ، ولاعمليـات عقليـة معقـدة بدونهـا ، ولاميول ووجـدانـات بدونها . إنها سر الوجود الذي لو فكر في كنهه جميع الخلق من إنس وغـير إنس لعجـزوا وتراجعوا ، يظنون في قدراتهم الظنون .

ويشكـون في كل ماأبـدعـوه من اخـتراعات وتقدم مادي كبير . ماسرّ هذه الروح ؟ ولماذا هي جزء مهم من أجزاء كيان هذا المخلوق ؟ وهل كانت تكفي ليُخلق الإنسان كما نراه ؟

رغم سرهـا ولغـزهـا لم تكن وحدها كيان الإنسان ولم تشكله بلا جسـد ونفس وعقـل عجـز عن تفسـير سرهـا كل بشـر حتى الأنبيـاء ومـادونهم من الفـلاسفـة والأذكيـاء والعبـاقـرة . قال تعـالى في كتابه العزيز : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ لقد خلق الله الروح لتكون مع الجسد ثم تنفصل عنه ، ولكنْ هل يعيش جسد بلا روح ؟ بالطبـع لا . ورغم أنهـا سرّ الأسـرار أودعهـا الله في الجسد ليكون الإنسان عظيماً بها كبيراً بملكوتها . .

وجسـد ويـالـه من جسد ، شعر في الرأس وبصلة بل جذور ، تمتص غداء الشعـر من جلدة فوق عظم ، وعظم في داخله الـدماغ . المـخ والمخيـخ وملايين الخلايا التي لايتوقف عملها ، كل منها له عمل خاص لايتعداه ، يجمع الفكر والذاكرة والخيال ويجمع أيضاً دماء تسير هنـا فهنـاك في حركـة دائمـة وتحت الـرأس عنق فيه مجرى التنفس وفيه مجرى الأكـل والشـراب وفيـه ما لايحصى من الشـرايين والغدد وكل له اختصـاصـه ، وتحت العنق عظام وصدر ثم أطراف وفي الداخل رئتان وكبـد وقلب وصـمامـات وطحـال وغـدد وآلاف الخـلايا ومعدة تطحن

الأكـل وتفـرزه عن الماء فهذا يذهب في اتجاه والآخر في اتجاه كل يعرف طريقـه ومخـرجـه ، ومن ثم تأتي ساقـان طويـلان وفي الأسفل قدمان تسـيران ، تحمـلان وزن الجسم مهـما كان خفيفـاً أوثقيـلاً . لايميل ولاينحني إلا بسبب ولا يمشي أويتـوقف إلا بسبب . ورغم معجـزتـه ورغم أسـراره التي لم يكتشف منهـا إلا القليـل لم يخلقـه الله وحـده لأنه وحـده لايستطيـع العمـل بل سكـون وتعطيل ، دخلت الروح في كل ثناياه فصار حياً وإلا فهو ميت لافائدة منه .

يقـول تعـالى في سورة المؤمنـون : ﴿ ولقـد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ١٢ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ١٣ ثم خلقنا النطفة علقـة فخلقنـا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ١٤ ﴾ .

وقـال تعـالى في سورة البلد : ﴿ألم نجعـل له عينـين ٨ ولسـانـاً وشفتين ٩ ﴾ وقال تعالى في سورة الانفطار : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ٦ الذي خلقك فسوّاك فعدلك ٧ في أي صورة ماشاء ركّبك ٨ ﴾ .

وعقـل ويـالـه من عقـل . يحلل مظـاهر الكون ويحسب ملايين المسـائـل الحسـابيـة ، يتعلم طبقات الأرض وطبقات الفضاء وتكوين

الإنسـان والحيـوان والنبـات ، يتعلم اللغـات من أمم شتى والعادات والأعـراف من أقـوام قريبـة وبعيدة يصنع السفن في البحر والفضاء . والصواريخ وعابرات الكون . ربط نفسه بالعلم الذي لايتوقف والذي دفـع الله الإنسـان إليـه كي ينال به أعلى مراتب الشرف والخير ، هذا العقل الذي لايُرى بل ترى آثاره ألا يكون معجزة للخلق ؟ بلى ولكن رغم كل مايحيط به وكل مايفعله ويصنعه فإنه لايساوي شيئاً دون روح توجهه ودون رأس ودماغ يحتويه .

أين هو هذا العقـل ؟ أين الخيـال والـذاكـرة والتفكـير أين العمليـات الحسـابية التي يجريها ؟ إن مركزه الدماغ هكذا نجيب نحن القاصرون المحدودون ، هكذا يقف الخلق كلهم عاجزين عن تجسيد هذا العقـل . إنـه يأمر وينهى ويقيّد النفس والجسد حتى يسيرا بنظام وموضـوعيـة ، ومـاذا يمكن أن تكـون عليه النفس ؟ وماذا يمكن أن يكـون عليـه الجسـد لو تخيلنـا أن لاعقـل يسـيّرهما لو تخيلنا أن لاعقل يوجههما ماذا يمكن أن يحدث ؟ بالطبع سوف ينتفي كون الإنسان إنساناً . .

يقول تعالى في كتابه الكريم (البقرة الآية ١٦٤) :

﴿ إن في خلق السمـوات والأرض واختـلاف الليـل والنهـار والفلك التي تجري في البحـر بما ينفـع النـاس ، وماأنزل الله من السماء

من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

ونفس ويالها من نفس ، آلاف الميول وآلاف الوجدانات ، مجال الحرب الطاحنة بين الفجور والتقوى ، بين الإباحية والانضباط ، كره ومحبة . غرور وتواضع . كبرياء ومذلة . إيثار وأثرة . تضحية وانكفاء . حب للقتل وعفة عن الإيذاء . صراع بين النقائض وكم هي كبيرة تلك النقائض . وكل مافيها يصبح عالماً يحطم بعضه بعضاً ولذلك جعلها محكومة لما هو أعلى منها ، فإذا ماقويت امتلأت الدنيا بالشرور والدمار وإذا ماانضبطت سار الكون إلى السلام وسيادة العدل والمحبة رغم مافيها من قوى مختلفة قيّدها خالقها بما هو أجدر منها علمها وألهمها طريق الفساد وطريق الصلاح . لاتعيش بدون غيرها من قوى ، ولاتعلو على موجّهها بل هي تحاول وتحاول ولكنها تظل مدينة للعقل والروح في استقامتها وسيرها المستقيم . .

يقول تعالى : ﴿ ونفس وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .
ويقول جل شأنه : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ٣٩ فإن الجنة هي المأوى ٤٠ ﴾ لهذا كان خلق الله للإنسان معجزة .

مخلوقات أربعة في مخلوق واحد . لاتنفصل عن بعضها كل منها يخدم الآخر ويوجهه يهذب ميوله ويرشده ، لايطغى أحدها على الآخر إلا عند الجاهلين الغافلين تعيش متوازنة متكيفة مع محيطها وأبعد من محيطها .

من هنا كان القرآن العظيم وكانت آياته المعجزات المنزلات تخاطب العقل والعاقلين والذين يودون أن يفكروا ، وتخاطب النفس فتكشف نوازعها وأهواءها وترشدها إلى طريق الصواب . تحذرها من السقوط والتساقط . وتخاطب الجسد من خلال العقل والنفس لا من خلاله ذاته لأنه وحده لايشكل سوى مادة لاتفقه ولاتفكر ولاتحب ولاتكره . جاءت آيات القرآن الكريم حاثّة على استخدام العقل والتفكير في أشياء تحتاج لإعمال العقل والتفكير . وخاطبت النفس بأسلوب آخر حيث حذرها هواها وحدد حريتها ، حذر أصحابها فكان التركيز عليها أشد وأقوى . خلقُ السموات والأرض معجزة لذلك خاطب الله العاقلين والمفكرين وطلب منهم النظر في خلقها ، خلْق الغيوم والرياح ومظاهر الطبيعة كلها معجزة فخاطب الله العقل والفكر للعمل في أخذ العبرة منها وللتعلم إن استطاع العقل أن يتعلم ، خلق البحار والنجوم والأنهار معجزة فخاطب الله العقل أن يتحرك باتجاهها . وخلق النفس البشرية معجزة لذلك طلب الله أن يبصر الإنسان ويتفحص هذه النفس بما فيها من عواطف ونوازع وميول .

وكـذلك جميع أنواع الخلق هي معجزات مطلوب من العقل أن يتحرك ليفقهها ويدرك أسرارها إن استطاع .

خلق الجسـد معجـزة لذلـك طالب الله العـاقلين والمفكرين أن يتفحصـوه ، يتفحصـوا شراييـنـه ، قلبه ، كبده ، عينيه ، كيف يدق القلب وكيف يسـير الـدم ، كيف تسمـع الأذن وكيف يشم الأنف ، كيف يتحسس الجسم البـارد والحـار وكيف تنبت الشعـرة وكيف تطول وكيف تبيضّ بعد أن كانت سوداء أو شقراء ، حذر العقل وحذر الروح من عدم قياد النفس . حذر الإنسان وقال له إن النفس حصان جامح يجب ترويضـه دون عنف وإلا سقـط صاحبه في المهالك وكان الصراع بين الخير والشر ، وكان الجدال بين العقل والنفس وكلما كانت أسلحة العقـل أقـوى سيطـر على النفس لكنـه يظـل ينـادي الـروح كي تمده بالأنوار التي تستمدها من خالقها الذي يريد لهذا الكون أن يسير نحو الاستقامة والسعادة والعدل والعلم المسخر لخير الكون والسلوك النقي .

لقـــد جاء القـرآن الكـريم خير محرك لمخلوقـات الله كي تدرك البداية والنهاية إن هذا الخلق المعجزة يحتاج لكتاب يرشد ويعلم ويربي لتكون السعادة شاملة كاملة في الدنيا والآخرة .

(١)
الجسد الإنسان صفات ومهمات

* الجسد الإنساني صفات ومهمات :

من خلال ماعلمنا القرآن عرفنا أن الله سبحانه خلق الجسد الإنساني أولاً قبل أن ينفخ فيه الروح وقبل أن يبدأ العقل عمله وقبل أن تتحرك النفس في اتجاهاتها الحميدة أو السيئة . .

خلق الله الجسد وعاء تتملكه الروح وتسيّره بمشيئة ربها ، وتتملكه النفس فتحاول أن تبقيه في عالم الماديات ويتملكه عقل يحاول أن يرقى به دوماً نحو الكمال .

لقد ذكر القرآن الكريم أن الله خلق آدم من تراب وبين سبحانه أن هذا التراب يعجن ليصبح طيناً ثم صلصالاً ثم حمأ مسنوناً ثم فخاراً .

ولكون هذا الإنسان محور الكائنات فقد ذكره القرآن بألفاظ وتعاريف كثيرة منها مايكون مخصصاً ومنها مايكون معمماً يفيد الفرد تارة ويفيد المجموع تارة أخرى . يفيد بني البشر جميعاً من ذكر وأنثى . ويفيد مجموع ماخلقه الله من آدم . لقد وردت لفظة الإنسان خمساً

وستين مرة ووردت كلمة آدم خمساً وعشرين مرة وكلمة الأنس تسع عشرة مرة ووردت لفظة بشر في ثلاثة عشر موضعاً . .

وتتوزع معاني هذه الألفاظ لتشمل الإنسان بوضعه المادي الحسي ووضعه المعنوي غير المجسد وغير الحسي . وقد أشار القرآن في مواضع شتى إلى هذا المخلوق بألفاظ أخرى كلفظة عبد وخلق وماشابه ذلك .

وهذا العدد الكبير من الألفاظ الدالة على الإنسان يؤكد أن هذا الوعاء الذي خلقه الله ليس مادة وحسب إنما هو عالم كبير يعجز عن كشف أسراره كلها ، العقل البشري مهما تطور ومهما بحث . .

من أين تبدأ قصة خلق الجسد البشري ؟

جاءت آيات القرآن الكريم واضحة في معجزة خلق الإنسان وقد بينت هذه الآيات أن الله سبحانه قال للملائكة إني خالق بشراً من طين .

فأصل الجسد البشري طين ، وجاءت هذه معجزة في حد ذاتها ، يقف عامة الناس حائرين أمامها متسائلين حولها ، غير أن الله سبحانه لم يترك هذا الخلق لغزاً محيراً فالذي يشك فيه يعود إلى القرآن

الكـريم ليرى أن آيـاتـه حاججت العقـل البشـري بمـوضوعية وعلم لتدرك أن الجسد مخلوق من طين حقاً .

يقـول تعـالى في سورة الحج آية ٥ : ﴿ ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ .

ويقول تعالى في سورة الروم آية ٢٠ : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب . . ﴾ إذاً فالحجة دامغة واضحة : إن كان الإنسان يشك أنه سيعـود إلى ربـه بعد أن يكون تراباً فلينظر إلى الخلق الأول ليدرك أنه من تراب وأن القادر على الخلق من تراب هو القادر على إعادة التراب مرة أخرى خلقاً آخر .

إذاً جاء أصل الخلق من تراب بمعنى أن أول مخلوق على وجه الأرض وهو النبي آدم عليه السلام خُلق من تراب . .

وبعد ذلك يبرز السؤال هل ظل البشر يُخلقون من تراب ؟

تجيبنـا آيـات الكتاب المبين أن آدم خلق من تراب وعندما ركب الله فيه الروح والنفس والعقل طور خلقه بحيث أصبح الإنسان نفسه وسيلة من وسائل خلق غيره . وبمعنى آخر إن خلق آدم لن يتكرر إلا لمعجزة كما حدث مع النبي عيسى عليه السلام وأصبح الرجل والأنثى سببين من أسباب الإنجاب وزيادة الخلق . .

وقد جاءت الآيات الكريمة واضحة في ذلك حيث قال تعالى في سورة السجدة آية ٧ـ٨ ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

وتعني الآية ماقلناه قبلها ، لقد كانت بداية الخلق من طين أما نسل آدم الذي يليه فقد خلقه الله من سلالة من ماء مهين وهذه السلالة توضحها آيات أخريات . يقول تعالى في سورة المؤمنون آية ١٢ . ١٣ . ١٤ : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

فسلالة من طين هي التراب ـ صلصال . حمأ مسنون (فخار) .

وسلالة من ماء مهين : نطفة ـ علقة ـ مضغة ـ (عظام) .

والسلالتان تتطابقان من حيث الفاعلية .

التراب في الأولى هو الأصل في عملية الخلق .

النطفة في الثانية هي الأصل في عملية الخلق .

التراب يعجن فيصبح صلصالاً أي طيناً طرياً ثم يابساً كالفخار . .

النطفة تلتقي بالبويضة فتصبح علقة أي دماً متجمداً . .

الصلصال بعملية الحرق يصبح أسود اللون ومصوراً صورة إنسان أجوف العلقة تنتقل بعملية الخلق إلى مضغة وهي قطعة أشبه باللحم وهي على قدر مايُمضغ ، الفخار آخر عملية الخلق الأولى لآدم . .

والعظام آخر عملية الخلق الثانية أي بعد آدم . .

فإذا ماااكتست العظام لحماً تكوّن خلق الجنين في رحم أمه . .

وإذا مانفخ الله الروح في الفخار صار إنساناً يتنفس ويحس ويشم إلخ . . وقد جاء في الآيات الكريمات قوله تعالى ﴿ فسويته ﴾ . وهذا يعني أن لاخلق بدون تسوية ولاسجود من قبل الملائكة لآدم دون تسوية . أي دون تشكيل لهذا الطين . وبدون تسوية يبقى الشكل لاملامح فيه ولاسمات ولاوضوح ولاتقسيمات لليد والوجه والرجل وكل جزئيات الجسم . .

وقد أكدت الآيات القرآنية عمليتي الخلق الأولى والثانية في أكثر من مكان وأكثر من سياق وفي مجملها كانت حجة على الإنسان ، على تكبّره ، على تفاخره ، وغروره يقول تعالى في سورة الطلاق الآيتان ٥ـ٦ ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ★ خلق من ماء دافق ﴾ فهذا الخلق يعود إلى الأصل التناسلي وليس إلى أصل خلق آدم أول البشر . .

إذاً فالله سبحانه خلق آدم من تراب وخلق نسله من ماء مهين .

ولو نظرنا إلى هذا الأصل الترابي من جهة والمائي من جهة أخرى لأدركنا قيمة الإنسان وهو جسد بلا روح بلا عقل ، بلا نفس .

ولو نظرنا إلى طلب الله سبحانه من ملائكته السجود لآدم لأدركنا أن الطلب في السجود لايكون لمادة دون روح وماقيمة المادة الفخارية حتى يُسجد لها وقد احتج إبليس على السجود لهذه المادة التي رأى نفسه معها أرقى وأرفع غير أن الله سبحانه يوضح أن السجود لن يكون للمادة بل هي للإنسان المتكامل الإنسان الجسد والروح :

يقول تعالى في سورة الحجر آية ٢٨-٢٩ : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول تعالى في سورة الأعراف الآية ١١ : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ .

لقد تمت عملية الخلق كما أوردها القرآن وبين أصلها وتطورها لكن الله سبحانه أودع هذا الجسد كثيراً من التفصيلات والجزئيات التي لاتُعدّ ولا تحصى . .

فقد أتم الله خلقه ، خلق الإنسان على أحسن صورة جسمانية وخلق في هذا الجسم ما لاعين رأت ولا أذن سمعت . .

لقد أمر الله ملائكته بالسجود للإنسان لأنه خلقه في أحسن

صورة وأجمل شكل يقول تعالى في سورة الانفطار ٦ـ٨ : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ماشاء ركبك ﴾ ٨

وقد تبين أن هذا الجسد الإنساني ماكان ليقوى لولا قدرة الله . فماذا عسى أن يفعل الفخار دون الروح وماذا عسى المضغة أن تفعل لولا العظام واللحم والروح ، لقد خُلق هذا الجسد ضعيفاً لولا إلهام الله لأمه أن ترعاه يقول تعالى في سورة الروم الآية /٥٤/ : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير ﴾ .

وكم من نعمة في جسد هذا الإنسان . وضع الرأس في الأعلى فماذا لو وُضع في الوسط أو الأسفل . وضع فيه عينين وفوقهما حاجبين فماذا لو وُضع الحاجبان تحت العينين ، ماذا لو تضع عيناً في الأمام وعيناً في خلف الرأس . لننظر إلى الأنف والشعر الذي بداخله ولننظر إلى دوره في حماية الإنسان من الغبار وبقايا المتناثرات في الجو . لننظر إلى الفم إلى اللسان والأسنان إلى الغدد التي تفرز اللعاب لنتصور جميعاً أن لدى المدخّن غدة لاتعمل عند غير المدخن ، لنتصور المادة التي خُلقت منها الشعرة !

يقول تعالى في سورة المؤمنون الآية ٧٨ : ﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ماتشكرون ﴾ .

وبعد كل ذلك فضل الله الإنسان على سائر مخلوقاته بشكله ونفسه وروحه وقلبه . قال تعالى في سورة الإسراء الآية ٧٠ : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً ﴾ .

ويقول تعالى في سورة التين : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ .

يرى بعينين ، ويسمع بأذنين ويتكلم بلسان ويأكل بفم ويمضغ بأسنان يتنفس برئتين ويعمل بيدين ورجلين . يتحسس بجلده ويتذوق بلسانه . وهذا جزء يسير مما خلق الله في هذا الجسد البشري .

وبعد أن خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وعرّفه مكانة خلقه من البداية حتى النهاية طلب منه أن يجعل هذا الجسد في سبيل الخير الذاتي والجماعي . طلب منه أن يكرسه للعبادة عبادة خالقه في العبادات الخاصة لله ، وفي العبادات العامة ، فالعمل في سبيل الأسرة عبادة ، والعمل على بناء الكون عبادة ، والعمل على فعل الخير عبادة البيع والشراء عبادة ، وكل مافيه خير النفس والآخرين عبادة .

﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

فإذا لم يكـرس هذا الجسـد للخـير الكوني فإنه دون روح ووفق المنظور القرآني ينتمي إلى عالم الأرض أي من التراب والطين وهو العالم السفـلي قيـاسـاً بعـالم السـماء ومـافوق الأرض وهو في خلقه دون روح يتسـاوى مع أبسـط حشـرات الأرض وأرذلهـا ولعل هذا مايفسر النزعة الشهوانية والسفلية في الإنسان ذلك لتماثل جسده مع مادة الأرض وماعليها . .

يقول الشيخ محي الدين بن العربي :

(وأمـا بنـو الإنسـان فإنهم جعلت طينتهم من الظلمـة والنـور وركب عنصرهم من الخير والشر والنفع والضر . وجُعلت ذواتهم قابلة للمعرفة والنكرة فأي جوهر غلب عليهم نسبوا إليه .

فإن علا جوهـر نوره على جوهـر الظلمة وظهرت روحانيته على جسـمانيتـه فقد فضل على الملك وعلا على الفلك ، وإن غلب جوهر ظلمتـه على جوهـر نوره وظهـرت جسـمانيته على روحانيته فقد فضل على الشيطان)[1].

ولعـل الحفـاظ على استقـامـة الجسـد وعلى نظـافته وقوته من الأوامر التي طلبها الله من عباده وكذلك فإن رسول الله ﷺ بيّن في سننه

---

(١) محي الدين بن عربي . شجرة الكون صفحة ٥٦ طبعة أولى عام ١٩٨٤ . دمشق المركز العربي للكتاب

الشـريفـة أن لهذا الجسد حقاً كبيراً يجب مراعاته وأن على هذا الجسد واجبـاً يجب تنفيـذه ويستـوقفنـا حق الجسد في الحياة فالله سبحانه حرّم القتل بغير حق ومن اعتدى على غيره بالقتل دون موجبات شرعية فإن جزاءه القتل والنفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن قال تعالى في سورة الأنعـام الآيـة ٥١ : ﴿ ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

وقد حرم الله الانتحار وكانت عقوبة قاتل نفسه النار لأنه بفعله هذا قضى على أمانة من أمانات الله .

وحـرم الله تعـذيب الجسد ، إن كان من قبل صاحبه أو من قبل الآخرين . وتكريم الله لبني آدم يعني أن يبتعد الإنسان عن التعذيب أو قطـع الأطـراف بلا مبر ر وقـد ورد في الـديانة (الجانتية الهندية) أن الـرهبـان يجيـزون الانتحـار والاستمتـاع بسعـادة الموت جوعاً . وهذا المـوت منـزلة سامية عند الجانتية . . ومن أساليب تعذيب الجسد القفز من شجـرة عاليـة يربـط برأسهـا حبـلاً من طرف ، ومن الطرف الآخر يربـط الجـانتي خصـره ويقفـز من أعلى بحيث لايصـل إلى الأرض وكثير ون يموتون خلال هذا التعذيب . .

وقد حرم الإسلام كل أشكال التعذيب الجسدي . وحث على معـاملة أسـرى الحـرب الأعداء معاملة حسنة وحرّم تعذيبهم . . ومن

كرامات الجسد أن حرم الإسلام حرقه بالنار إن كان حياً أو ميتاً بقصد التعذيب أو جعله رماداً يندثر كما يفعل أصحاب الديانة الهندوكية . .

وقد حرم الإسلام تجويع الجسد بغاية التقرب إلى الله . وقد ورد أن رسول الله ﷺ سمع عن ثلاثة من المسلمين ، أنهم عاهدوا أنفسهم على الصوم طول الدهر وعلى الصلاة دون راحة وعلى عدم الزواج ، فجلبهم رسول الله وقال لهم إنني أصوم وأفطر وأصلي وأرتاح وأتزوج النساء . . فللجسد حق المتعة إن كانت حلالاً . ولا رهبانية في الإسلام . وهذا لايعني أن ينغمس الجسد في الملذات حتى يُتخم . فالتعفّف من صفات المؤمن . والتخمة تذهب الفطنة ، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يستطع فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وهذا ماعلمنا إياه رسول الله ﷺ .

ومن واجب المسلم أن يعوّد جسمه على العمل والرياضة والحركة ولايخنع ولايكون ساكناً غير فاعل . والعمل أي عمل يتعب به الجسد هو كرامة له . والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . فالقوة شاملة عامة ومنها قوة الجسم وقوة العقل وقوة المال . وكان ﷺ يحث على الرياضة وذلك لتقوية الأجسام : [علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل] ففيها جميعها قوة للجسم وتقوية للعضلات .

ومن حق الجسد على المسلم أن يكون لسانه نظيفاً ونظافة

اللسان في عدم المغيبة والنميمة أو الشتم أو السب ، ونظافته تكون بحركته الدائمة بذكر الله وأحاديث الخير والصلاح . والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه وعلى المسلم أن يمنع لسانه عن الكذب والفتن بين الناس . يقول تعالى في سورة النحل الآية ١١٦ : ﴿ ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ﴾ .

ويقول تعالى في السورة نفسها الآية ٦٢ : ﴿ ويجعلون لله مايكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾ .

وقد حرص القرآن الكريم على تنبيه الإنسان إلى أن اللسان سيكون شاهداً عليه يوم القيامة إن استخدمه بنطق الخير أو نطق الشر . .

يقول تعالى في سورة النور الآية ٢٤ : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ .

ومن خصائص اللسان ألا يستعمل في المغيبة تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿ ولايغتب بعضكم بعضاً ﴾ .

وقد جاء القرآن الكريم بآيات تحث على استخدام البصر في العلم والخير وتحث على غض البصر وحفظه . فالمسلم لا ينظر إلى امرأة غريبة والمرأة المسلمة لاتنظر إلى رجل لأن في ذلك إثماً وخطأ اجتماعياً .

يقـول تعـالى في سورة النـور الآيـة ٣٠-٣١ : ﴿ قل للمؤمنين يغضـوا من أبصـارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما تصـنعـون ٣٠ وقـل للمؤمنـات يغضضن من أبصـارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها . . ﴾ .

فهذه العين التي أودعها الله نعمة البصر ليست مخلوقة من أجل الإشبـاع بالمحـرمـات والحسـد والفضـائـح بل هي مخلوقـة لنُحسن استخدامها ونكرس نظرها فيما حلله الله وفيما حثنا عليه من تفحص في النفس والكون والأرض ومعجزات خلقه .

يقول تعالى في سورة الإسراء آية ٣٦ : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ .

إن أفضل التبصر أن يجمع الإنسان مايشاهده بصره وماتشاهده بصيرته كي يتفحص خلق الله ويزيد إيمانه بهذا الخالق المبدع ، لينظر إلى آيات القرآن يتفحصها ويتمعن فيها كي يصل إلى درجات الإيمان العليا .

ولـو فقـد الإنسـان بصـره . سيرى أن كارثة حلت عليه فنعمة البصـر من أهم النعم التي منحهـا الله لبني البشـر ، ويجب المحـافظة عليها من الأوساخ المادية والمعنوية حتى تظل نظيفة معافاة ترى حقائق الأشياء لازيفها .

لقد خلق الله في رأس الإنسان عينين وأذنين وشأن الأذن كشأن العين فهي أداة السمع التي بدونها قد لايفقه الإنسان شيئاً وقد وصف الله الـذين يحاربـون وحـدانيـة الله بالبهـائم بل أشد بهيمية لأنهم صم وبكم وعمي فالأذن أداة قادرة على السمع السيء والسمع الحسن . وعلى المسلم أن يحسن استخدام سمعه . يسمع القرآن والكلام الطيب ويغلق أذنيه عن الخبيث من القول والحديث . والمؤمن الحق هو الذي يستمع القول فيتبع أحسنه ويبتعد عن سيّئه ، وهو مسؤول أمام خالقه في الحفاظ على هذه الوسيلة المهمة من وسائل تكامل الجسد البشري .

لقـد ثبت علميـاً أن الأذن تحوي مائة ألف خلية سمعية وتنتهي أعصابها بأهداب دقيقة وتحيرّ الألباب بعظمتها ، فالله الذي خلق هذه الأذن حريص على أن تُحفـظ من الأذى . ولعـل أذاهـا لايتأتى من الأوساخ والغبار فالمادة الصمغية كفيلة بتنظيفها إنما الأذى الأكبر يتأتى من السماع إلى مالاينفع وفيه ضرر للذات وللآخرين . .

لقـد وصف الله نفسـه جل جلاله بالسميع البصير تقريباً لذهن الإنسان وتنبيهاً له ، فالسمع نعمة عظمى من نعم الله وعلى الإنسان أن يحافظ عليها وإلا فلا فائدة منها إن هي كُرّست في غير موضعها . .

وهذا الجسد من داخله ألا يحيرّ العقول والألباب ؟ لقد منّ الله على بني البشـر بهذه النعم التي لاتحصى . فلننظـر إلى دخول الطعام

من الفم ثم البلعوم . ثم المري ثم المعدة وبعد هضم الأكل وفرز العصارات يمتص الكبد مافيه فائدة للدم وللجسم ويأتي دور القلب في تنقية الدم من الغازات الضارة والخبيثة لننظر إلى مجرى الأكل كيف يمكث خلف مجرى التنفس لو حدث خطأ بسيط جداً ودخل شيء من الأكل في القصبة ماذا يحدث للإنسان وكم يسعل وكم يحاول التنفس حتى لايختنق ؟ لنتصور أن هذا البلعوم جاء في غير موضعه الذي خلقه الله عليه ماذا يحدث الإنسان ؟ هل يعيش ؟ هل تنطبق عليه صفة الحياة ؟

لقد نبهنا الله سبحانه وحثنا على حفظ هذا الجسم من داخله كما من خارجه فحذرنا من أكل السحت والحرام لأن الحرام نار على الجسم . حذرنا من أكل الميتة والخنزير والدم حتى لانقع في أمراض التسمم وأمراض الديدان الفتاكة ، حذرنا من شرب الخمر لأنه يهلك المعدة والأمعاء . وعلمنا ألّا نكثر من الأكل كي لايزداد الشحم ويختنق القلب والكلية وغيرهما لكثرة الشحوم أو الكولسترول .

إن هذا الجسم حتى يكون سليماً معافى علينا أن نجنّبه كل مايشتهيه لانفرط ولانبالغ حتى نظل على اتزاننا ونكون صالحين بأجسادنا لمنفعة أرض الله وأمته ومجتمع التوحيد الذي هو في سعي دائم لنشر كلمة التوحيد ، ولعل من أكثر ماركز عليه القرآن والسنة الشريفة الطهارة وهي في غاياتها النظافة المادية والمعنوية ، وهي تشمل الجسد كله والنفس وخفاياها .

أما نظافة الجسد وطهارته فهي تتوزع بين الغسل بشكل طبيعي والغسل نتيجة الجنابة وبين الغسل المخصص لأعضاء الجسم الخارجية وبين غسل المرأة بشتى أشكاله .

وطبيعـة المؤمن طبيعـة نظيفـة لأن عبادات المؤمن لاتتم إلا إذا كان استعداده تاماً وهذا الاستعداد يتوجب أولاً نظافة النفس ومن ثم نظافة الجسد .

لقـد فُرض الغسـل على الرجل في حال الجنابة ، وهذا الغسل يشمل كافة الجسم حتى الشعر الذي في الأنف وقد أكد الإسلام تلك النظـافـة حرصـاً على جسـده من الأمراض وقد ثبت علمياً أن الرجل أثناء الجماع يفرز من جسمه كافة أنواع السموم التي تخرج مع العرق . وقـد عرفنـا من خلال الآية الكريمة القائلة : ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ أن المني ليس نجسـاً بحـد ذاته وليس المقصود بالغسل النظافة من هذا المني إنما المقصود تنظيف الجسم من تلك السموم التي تفرزها مسامات الجلد في كافة أنحائه .

قال تعـالى في سورة النسـاء الآيـة ٤٣ : ﴿ ياأيهـا الـذين آمنوا لاتقـربـوا الصـلاة وأنتم سكـارى حتى تعلمـوا ماتقـولون ولاجنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغـائـط أو لمستم النسـاء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوّاً غفوراً ﴾ .

وقـد فرض الله على المسـلمـين خمس صلوات فكـيـف بهم لايغتسلون من جنـابـة ؟ وقد حبذ الإسلام عدم الخروج من المنزل إلا في حالـة الطهـارة من الجنـابـة ولايحق للمسلم إن كان جنباً أن يمسك كتاب الله لأنه لايمسّه إلا المطهّرون . .

أمـا طهـارة المرأة فقد شدد الإسلام عليها لأنها عرضة للنجاسة أكثـر من الـرجـل فهي في حالـة الحيض تمكث سبعـة أيام تقل أوتزيد لايحق لها أن تصلي أو تصوم ولايحق لزوجها أن يقربها بقصد الجماع وقد حذر القرآن من مغبة ذلك . إلى جانب التحذير الشرعي هناك تحذير صحي . فالدم في حالة حيض المرأة عبارة عن بقايا أوساخ يجرفها الدم حتى لاتؤذي وقـد قال العلماء إن بعض الأمـراض الخبيثـة ولاسيـما الجلدية تصيب الرجال والنساء على السواء بسبب ممارسة الجماع أثناء فترة حيض المرأة قال تعالى : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ .

ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولاتقـربـوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التـوابين ويحب المتطهرين . . ومالينطبق على المحيض ينطبق على المـرأة بعـد الـولادة . . فلا اقتراب منها حتى تطهر . لأنها طوال الفـترة بعـد الـولادة مباشرة تبقى عرضة لإخراج زوائد الدم وكثير من الفضلات المؤذية .

وقد نبه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى وجوب تنظيف بعض

الأمـاكن باستمـرار كشعـر العانة وشعر الإبط . وهذه الأماكن من أكثر أجـزاء الجسم عرضـة لمكـوث الجراثيم فيها . إضافة إلى أنواع القمل المؤذي . وحث الرسول ﷺ على تهذيب شعر الرأس وتقليم الأظافر . .

ولـو نظـرنـا إلى هذه العنـاية الفائقة بجسم الإنسان لأدركنا سر ذلك الربط بينها وبين العبادات فلا تحق الصلاة إلا بنظافة الجسم من جميع جوانبه أما عن الطهارة من البول والغائط فقد حثنا القرآن الكريم والسنة الشريفة على الانتباه الشديد لهما وعدا الغاية الدينية فإن ذلك يعني الاعتناء الشديد بنظافة مكان خروج البول أو الغائط . .

والـوضـوء خمس مرات في اليـوم تأكيـد على النظافة فكما يغسل الإنسـان أعضـاءه خمس مرات فتبقى نظيفة كذلك يغسل الله الذنوب بفعـل الصـلاة خمس مرات يوميـاً ولنلاحظ الوضوء فإنه يشمل اليدين حتى مابعـد كوع المـرفق ويشمل الوجه كله والأذنين والرأس والرقبة . ويشمل تنظيف الفم والأنف ويشمل أيضاً الرجلين إضافة لذلك كله فقـد حث الـرسـول ﷺ على استخـدام السـواك وتنظيف الأسنان . وبعد أن تفحص العلماء السواك وجدوا أن فيه رائحة تقتل الجراثيم في الأسنان .

يقـول تعـالى في سورة المائدة الآية ١٧١ : ﴿ ياأيها الذين آمنوا

إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤ وسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ .

وقد علمنا الله سبحانه أنه جميل يحب الجميل وعلى هذا فإن نظافة المسلم هي من جماله . وقد حث رسول الله ﷺ على استخدام العطر الخاص والتطيّب ، فالرائحة الطيبة لاتنفّر بل يقبل بسببها المسلم على المسلم ، وهذه بالطبع خصائص الإسلام من ناحية الاهتمام بالجسد الإنساني .

وقد علمنا الله سبحانه أن هذا الجسم أمانة في عنق المسلم فعليه أن لايرهقه ولا يُتعبه ولا يهلكه بالمحرمات . . . .

هذا هو الجسد البشري الذي خلقه الله من تراب ثم خلق نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم خلقه إنساناً متكامل الملامح وأدخل فيه الروح ليكون على أحسن صورة أبدعها الله . وكرامة لهذا الجسد فقد طُلب من الإنسان الحفاظ على نظافته من داخله وخارجه . . وتكريسه لخدمة الله وشؤون الخلق والخليقة وإعمار الدين والدنيا ، لقد حرص القرآن الكريم وحرص رسول الله ﷺ على توضيح ماعلى الإنسان من واجب تجاه جسمه حتى يظل صحيحاً معافى . حرم قتله وتشويهه وتعذيبه بأي شكل كان وحرم عليه مايضره ويفتك به . .

كل ذلك الحرص جاء لتكون الروح فيه عاملة فاعلة عاقلة نافعة موجهة نحو الخير ومحو الشر من على وجه الأرض .

(٢)
الروح الإنساني المفهوم وآفاق الفاعلية

* الروح الإنسانية : المفهوم وآفاق الفاعلية :

للروح عالم لاحدود له يشغل العلماء والباحثين والمفكرين منذ بدأ العلم والبحث والتفكير . ورغم ذلك بقيت الروح سراً من أسرار الله لايحيط به علم إنسان مهما بلغ من درجات العلم .

وقد ذكر القرآن الكريم الروح ومشتقاتها في عشرين موقعاً وقد أفادت ثلاثة مفاهيم . المفهوم الأول جبريل عليه السلام ومنه قوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ فالروح هنا جبريل . والمفهوم الثاني يفيد التأييد من الله تعالى لمن يشاء من عباده كقوله : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ وفي المفهوم الثالث تفيد شيئاً من الذات الإلهية كقوله : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ .

ولكن الروح التي حجب الله تعالى سرها عنا تترك فينا آثاراً في كل لحظة نعيشها ، تترك أثرها في مشينا ونومنا وعملنا وعبادتنا . . وتترك أثرها في العقل والقلب والوجدان والنفس والجسد فهي محيطة

بعوالم الإنسان المادية والمعنوية فإذا ماحل فراقها فقد الجسد مبررات وجوده .

ومن طبيعة خلق الله للإنسان أن جعلها تنقسم قسمين : قسماً ظاهراً وهو ماحواه الجسد وقسماً مخفياً وهو مجال العواطف والضمير والمحاسبة والنية ، وماشابه ذلك . وتتحكم الروح بجميع أجزاء القسم المخفي وتؤثر فيه أكبر تأثير .

وتمثل الروح في الإنسان كما صورها القرآن الكريم كمال خلق الله لآدم يقول تعالى في سورة الحجر آية ٢٩ : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ ومكانة الروح سامية تسمو على ماعداها من الإنسان . الجسد يفنى ويتفسخ والقلب يموت ويفنى وكذلك كل شيء في الإنسان ماعدا روحه ، وهذه الروح تتصف بأنها لاتخضع لزمان أومكان فهي عقل وضمير وحس داخلي وبصيرة وذات داخلية عميقة . لايطرأ عليها تغيير ولاتقبل القياس والوزن ولاتخضع لمقاييس المادة . ومن خلال فهمنا ، لطبيعة أنفسنا من خلال القرآن ومن خلال واقعية التفكير للمؤمن ندرك أن الروح هي المسيّرة للعقل والنفس والجسد فإذا ماتوقف عن العمل توقفت هذه الأجزاء بدورها عن العمل وانتهت حياة الإنسان الدنيوية . وكل إنسان يحس بداخله بأن هناك ماهية لايستطيع تفسيرها تحرك فيه كل شيء وهذه الماهية اللغز هي

الروح التي وهبها الله القوة العظيمة لتسير بالإنسان إلى منتهى العمر .

لقد فرق العلماء بين النفس والروح فقالوا هناك الروح وهناك النفس . . والنفس هي التقاء الروح بالمادة وهذه هي النفس ولذلك فإن التكليف للنفس الإنسانية وليس للروح وحدها . وحين تلتقي الروح بالمادة تنشأ الحياة الأرضية أو تنشأ النفس وحين نفهم كلمة الروح فإننا نقصد مابه حياة المادة .

وحينما سئل الرسول ﷺ عن الروح كان السائلون يريدون أن يعرفوا ماهي الروح ومن ماذا تكون . وهنا رد الله سبحانه بأن علمكم لن يصل كشف سرها . وكان على هؤلاء السائلين أن يسألوا من أين جاءت الروح لا ماهو كنهها وماهي طبيعتها . فالروح تنفع الإنسان وينتفع بها ولو كان يجهل ماهي ، إن الروح في داخل الإنسان يشعر بآثارها وهي التي تحرك كل شيء ولا تُعرف طبيعتها . .

إن الروح من أمر ربها من إرادته فإذا أراد الله لجسد أن يحيا أدخل فيه الروح وإن أراد له أن يفنى أخرج منه الروح فالأمر من الله ، ومن إرادته العلية وقدرته التي لاتدرك طبيعتها . .

وقد أقر جميع علماء المسلمين حتى المتصوفة منهم بصعوبة البحث في الروح وقد رجّحوا عدم الخوض في بحثها وقد قال الصوفي

الكبير أبو النجيب السهروردي في ذلك : « واعلم أن الكلام عن الروح صعب المرام ، والإمساك عن ذلك سبيل ذوي الأحلام وقد عظم الله تعالى شأن الروح وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال : ﴿ وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال ابن عباس : قالت اليهود للنبي ﷺ أخبرنا مالروح ؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيه شيء فلم يجبهم فأتاه جبريل بهذه الآية : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾[1] .

وقد قال الجنيد وهو من الصوفيين الكبار : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود .

وقد قال أبو عبد الله النباحي : الروح جسم يلطف عن الحس ويكبر عن اللمس ولا يعبر عنه بأكثر من موجود . .

وقد قال ابن عطاء الله : خلق الله الأرواح قبل الأجساد لقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم [صورناكم] ﴾ يعني الأجساد .

وقال بعضهم الروح لطيف قائم في كثيف كالبصر جوهر لطيف قائم في كثيف .

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح أمخلوقة هي قال نعم : ولولا ذلك ماأقرت بالربوبية حيث قال (بلى) والروح هي التي قام بها

---

(١) عوارف المعارف السهروردي . ص ٤٤٣ دار الكتاب العربي طبعة ثانية بيروت ١٩٨٣

البـدن واستحق بها اسم الحيـاة ، وبالروح ثبت العقل وبالروح قامت الحجة ولو لم يكن الروح كان العقل معطّلاً لاحجة عليه ولا له . .

وقيل إنها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر وأنـورهـا وبهـا تتراءى المغيّبات وبها يكون الكشف لأهل الحقائق وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأدب[٢] .

وروى سعيـــد بن المـسيّب عن سلمان قال : أرواح المؤمنـــين تذهـب في برزخ من الأرض حيـث شاءت بين السـماء والأرض حتى يردها إلى جسدها .

إن الروح خُلق من روح العزة الإلهية وخلق إبليس من نار العزة ولهــذا قال إبليس : ﴿ خلقتني من نار وخلقتــه من طين ﴾ ولم يدر أن النـور خير من النـار وقـال بعض العلماء قرن الله تعـالى العلم بالروح فهي للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لايبلغ ذلك .

وقـد سئـل ابن عبـاس رضي الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال : أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الادهان (الـزيت) قيـل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت فقال : فأين يذهب لحمها إذا مرضت ؟

---

(٢) عوارف المعارف السهروردي . ص ٤٤٧ دار الكتاب العربي طبعة ثانية بيروت ١٩٨٣

وقد تحدث الفلاسفة والمفكرون عن الورح ولم تخرج فلسفاتهم عن عالم الظن والتخمين ، ومن أشهر من تحدث عنها الفيلسوف الإسلامي العربي ابن سينا وذلك من خلال قصيدته العينية المشهورة .

فابن سينا يرمز إلى الروح عن طريق الاستعارة بالورقاء وهي الحمامة الرمادية الضارب لونها إلى الخضرة . ويلاحظ القارىء المتمعن للقصيدة أن ابن سينا يلخص كثيراً من الأفكار والآراء التي تحدثت عن الروح .

يقول في قصيدته :

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تعزز وتمنّع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت
ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى
ومنازلاً بفراقها لم تقنع

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها

عن ميم مركزها بذات الأجرع

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت

بين المعالم والطلول الخضّع

تبكي إذا ذكرت عهوداً بالحمى

بمدامع تهمي ولم تتقطّع

وتظل ساجعة على الدمن التي

درست بتكرار الرياح الأربع

إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها

قفص عن الأوج الفسيح المربع

حتى إذا قرب المسير عن الحمى

ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغدت مفارقة لكل مخلَّف

عنها حليف الترب غير مشيّع

سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت

ماليس يدرك بالعيون الهجّع

وغدت تغرد فوق ذروة شاهق

والعلم يرفع كل من لم يرفع

فلأي شيء أهبطت من شامخ

عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع

إن كان أهبطها الإله لحكمة
طويت على الفذ اللبيب الأروع

فهبوطها إن كان ضربة لازب
لتكون سامعة لما لم تسمع

وتعود عالمة بكل خفيّه
في العالمين فخرقها لم يرقع

وهي التي قطع الزمان طريقها
حتى إذا غربت بغير المطلع

فكأنها برق تألق بالحمى
ثم انطوى فكأنه لم يلمع

أنعم برد جواب ماأنا فاحص
عنه فنار العلم ذات تشعشع

إن ابن سينا في هذه الرؤ ية يرى أن الروح قبل حلولها في الجسد كانت تعيش في عالم علوي يكتنفه السر والحجب والطلسم . وقد أنزلها الله لتحل في الجسم الذي يعيش عالمه الأرضي الذي يمتلىء بالخطوب ويضج بالملهات والمتاعب . لقد كانت الروح ممتنعة رافضة أن تدخل عالم الجسم المحدود المقيد . . ورغم أن أثرها وأثر وجودها واضح وضوح الشمس إلا أنها استعصت على العارفين وذوي العقول .

إن ذلك الهبوط إلى الجسد من الأعلى لم يكن يرضيها ولكن ما إن حلت بالجسد حتى صارت ملازمة له لاتفارقه رغم أنها تعرف طبيعته البائدة المندثرة فهو خراب بلقع ونهايته الفناء . لقد كانت خفيفة طليقة فإذا بها تحل في هذا الجسم الثقيل الذي يخضع لقوانين التغير والتبدل وعندما عرفته على هذه الصورة الترابية راحت تحن إلى أصلها النوراني الخفيف . فالجسم كالسجن لها تتحكم في تكوينه وتكوين مزاجه الرياح الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف وهي تقابل العناصر الأربعة النار والماء والهواء والتراب .

وقد تجلت محدودية هذا الجسم المادي في كونه كالشرك الذي يحاول عدم إطلاق الروح . لكنها تأبى وتفارقه فإذا حل الرحيل وجاء موت الجسد وخلفته حطاماً لايلوي على شيء كُشف عنها غطاؤها فأبصرت ببصيرتها النافذة ما لم تكن تدركه ببصرها الهاجع وغنت من نشوة المعرفة لأنها حينئذ تحصّل الكمال بتمام العلم إذ كان العلم ومايزال يرفع صاحبه فوق الذرا العالية .

لقد تساءل ابن سينا كما تساءل غيره من المفكرين ما الحكمة من هبوط الروح وحلولها في الجسد . والحقيقة أن ابن سينا لم يعثر على جواب لكنه يصف نهاية مطافها في الجو الأرضي المادي . . إنها مثل البرق الذي تألق نوره ثم اختفى فكأنه لم يلمع . وهكذا هي حياة الإنسان مهما طال أمدها ومهما طالت أعوامها . إنها عند الموت تدرك أن هذه السنين كالبرق أو كلمحة بصر . .

إن هذه الصورة التي طرحها ابن سينا عن الروح لاتتعدى مقولة بعض الآراء الفلسفية التي طرحها أفلاطون وبعض فلاسفة العرب .
وقد كان للصوفيين الباع الأكبر في هذه المسألة لكنهم عرضوها بشكلها الديني المستغرق بالحب الإلهي فمجدوا الروح أيّما تمجيد ونسبوها إلى إرادة الله العلي القدير واعتبروها مصدر النور والخير والمحبة للإنسان ومن خلال هذه الرؤية فقد عملوا على راحة الروح وسعادتها من خلال التقرب الصافي من الله سبحانه وتعالى وكرسوا لنقائها كل أنواع العبادات وكل أنواع التهذيب النفسي ، وكل أنواع التفكير والتفكّر العميق في مخلوقات الله المعجزة . .

ومع أن ابن سينا طرح نظرته بأسلوبه الفلسفي إلا أنه يلتقي مع كافة العلماء المسلمين والمتصوفين في أن الوصول لسر الروح ضرب من المستحيل ولذلك قال :

فاصرف جهودك للعلى متحفزاً
يكفيك نبل القصد والمتطلع

أما عن مجال فاعلية الروح فإنه يرتبط بالقلب أشد الارتباط كما أنه يتعلق بفاعلية العقل والنفس . غير أن الرباط بين الروح والقلب كالعلاقة بين الابن وأبيه . فالروح للقلب أب والقلب ابن يميل دوماً إلى هذا الأب الذي يوجّه ويرشد .

فمن القلوب قلب متطلع إلى الأب وهو القلب المؤيد الذي ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه حذيفة رضي الله عنه قال: [القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها] والقلب المنكوس ميال إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميله إليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة.

وإذا كانت العلاقة هذه بين الروح والقلب قوية بحيث لاتستطيع النفس جرّه إلى الدونيات والأرضيات فقد ارتقى بصاحبه وأبعده عن السقوط والتهاوي ومن هنا كانت علاقة الروح بالقلب علاقة محبة وخير ورقي لاعلاقة تدمير وإسقاط.

وقد تحدث القرآن الكريم عن قلب الإنسان في مائة واثنتين وثلاثين مرة وقد صنّفت الآيات القرآنية القلب إلى قلب مريض وقلب ضعيف وقلب مطمئن وقلب أغلق وما إلى ذلك..

فالقلوب الصافية النقية المطمئنة القوية هي التي تكون علاقتها بالروح علاقة ود ومحبة وعلاقة إخلاص وصفاء.

والقلب بمفهومه المادي تلك القطعة الصنوبرية من اللحم التي تعمل أكثر الأعمال حساسية في صدر الإنسان أو في الجسم كله . وقد اعتبر القلب مركز الحياة فإذا ماتوقف توقفت الحياة ومن هنا جاءت علاقته القوية بالروح . لكنه بمفهومه القرآني يأخذ أبعاداً أكثر من الكيان المادي المعروف. إن الروح تأمره بالحب والمعروف والتضحية والإيثار وتأمره بكل المشاعر الحميدة التي من شأنها الرقي إلى محبة الله والإيمان ثم التقوى .

يقول تعالى في سورة التغابن الآية ١١ : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ﴾ ويقول تعالى في سورة الرعد آية ٢٨ : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ويقول تعالى : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ الشعراء آية ٨٩ وقال تعالى في سورة آل عمران آية ١٥٩ : ﴿ لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

فالقلب عالم تجسيد أوامر الروح إن كان متعلقاً بها لا بالنفس . وطالما يكون القلب نظيفاً عامراً بحب الله والخير طالما أن الروح تمده مداً لاينقطع وقد قال الصوفيون : الروح العلوي يهم بالارتفاع إلى مولاه شوقاً وحنواً وتنزّهاً عن الأكوان ، ومن الأكوان القلب والنفس فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنوّ الولد الحنون البار إلى الوالد[1] .

---

(١) عوارف المعارف السهروردي. ص ٤٤٩. دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣

وقيل إن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات المحمودة . .

والفرق بين المؤمن وغيره أن الأول قلبه عامر بالعقيدة القوية في الله دائماً أما غير المؤمن فهو لايرجع إلى فطرته ولايؤمن بربه إلا تحت الضغط والإكراه من قبل عامل خارجي يهددهم كالبلاء بالجسد أو الزلازل أو ماشابه ذلك . من إغراق أو حرق . .

وتتجلى علاقة الروح بالقلب من خلال فعلها فيه ومن خلال تفاعله معها ولهذا نجد في القرآن الكريم أوصافاً كثيرة للقلب بصورته الإيجابية وماهذه الصورة إلا انعكاساً لفعل الروح وتأثيرها فيه .

فمن هذه الأوصاف القلب (المؤمن) وهو الذي اعتنقته روحه فأخلص في قلبه لله ورسله وكتبه وملائكته وبكل ماقاله الله سبحانه وتعالى .

والقلب السليم ماجعلته الروح معافى من أمراض الشيطان وأعراض الدنيا .

والقلب المنيب الذي جعلته الروح تعود إلى ربه دوماً داعياً إليه .

القلب المتفقة : الذي جعلته الروح متفقهاً بلسانه وعقله بالدين وعلوم الدنيا .

القلب المطمئن : وهو الذي تجعله الروح ساكناً متيقناً من رضا الله عليه وهو مطمئن الجوارح لايخاف من سوء العاقبة . .

القلب الخاشع : الذي جعلته الروح خاشعاً منْ خوف الله وعظمته . .

القلب المتقي : الذي امتلأ بالتقوى والإيمان الصادق بالله .

القلب الصافي : وهو ماجعلته الروح نقياً من الشوائب وعلائق الدنيا .

القلب الأليف : الـذي يألفـه النـاس فهـو منفتح بالإيمان على الخالق والخلق .

القلب الطاهر : الذي خلص من نجاسات الدنيا والشيطان المعنوية .

القلب اللين : الذي يتقبل التقوى والصلاح ويخضع لقول الله وتعاليم دينه .

القلب الوجل : الخائف من الله عز وجل مخافة إيمان ومحبة لله .

القلب المهتدي : ذلك الذي هداه الله إلى الإيمان والصلاح . .

وهناك أوصاف أخرى إذا ماأراد المسلم أن يبحث عنها في كتاب الله الكريم وجميع هذه الأوصاف تتصل عملياً بالروح فهي التي تربط القلب بربـاط الإيـمان ومحبـة الله فتجعله مؤمنـاً صافيـاً منيبـاً أليفـاً خائفاً . . . إلخ وبقدر قرب صاحب القلب من الله يكون وصف قلبه وبقدر ماتكون الروح قريبة من الله يكون القلب . فنلاحظ أنه يمكن أن نرى تصنيفاً وتدرجاً في الأوصاف ، غير أن المؤمن الحق قد يكون

قلبـه من القلوب التي تجمـع أكثر من صفة ، وقد تجمع جميع الصفات طالما نبعها الخوف من الله والإخلاص له ولدينه .

وقد وردت في القرآن الكريم للقلوب صفات سيئة وذلك بسبب تعلقهـا بالنفس وتعلق النفس بها ومن ثم ابتعـاد الـروح عنهـا وجاءت هذه الأوصـاف كثـيرة ومتنـوعـة وهـذا دليل أيضاً على أن المعادين لله ورسوله وكتابه المبين ينقلبون بقلوبهم ونفوسهم تقلباً كبيراً ، وقد ورد في القرآن الكريم من أوصاف القلوب :

القلب الكافر الذي كفر بربه وبكل مقدسات الدين .
القلب المنكر وهو يعلم الحق وينكره إجحاداً بربه .
القلب المقفل الذي قُفل عليه فلا يدخل الإيمان فيه . .
القلب المغّلف وهـو الـذي غُلّق عليـه فلا منفـذ فيـه ليـدخـل الإيمان .
القلب المغلّق وهـو الـذي غلّـف بها لا يسمـح للإيمان أن يدخل وقد غلفه الشيطان بأغلفة الكفر .
القلب المختـوم عليـه : كالقلب الـذي غلّق ولكن صفة الختم تعني السمة والعلامة أيضاً والتي تشير له بأنه قلب المعادي لله ولرسوله .
القلب القاسي : الذي لايلين مهما حاول الإيمان أن يليّنه . .

القلب المنافق : الذي يظهر لسانه شيئاً ويبطن النفاق والعداء .

القلب الزائف الذي ظاهر لسانه شيء وحال داخله شيء آخر .

ومن أوصاف القلوب التي تضيع أو تتلهى عن الحقيقة :

القلب اللاهي ، القلب المشتت ، القلب المرتاب ، القلب المتقلب ، القلب المريض ، القلب الغافل ، القلب الأعمى .

ومن القلوب التي تعشعش فيه العزة المختلطة بالغرور :

القلب المتكبر ، القلب الغليظ ، القلب الفظ ، القلب الشديد .

ومن القلوب الخائرة بسبب ماوجدت من حساب الله لها في الدنيا والآخرة :

القلب المتحسر ، القلب المرتعب ، القلب الفزِع .

نلاحظ أن للقلوب صفات بقدر ماهي عليه من الاقتراب للكفر والطغيان بقدر ماتكون ضعتها . . فمن هذه القلوب ماتغلّب عليه الشيطان فجعله كافراً أو مغلقاً أو منكراً ومنها مافسدت ثم حاولت أن تعود إلى إيمانها كالقلب الغافل والذي يمكن أن يصحو ، وكذلك القلب اللاهي الذي من الممكن أن يتنبه ويصحو .

وقد وصفت بعض القلوب بصفات التحسّر والرعب والخوف والتشتت وذلك حسب موقفها المخزي أمام خالقها . وذلك أيضاً بسبب معرفتها أنها كانت على باطل وهي تندم ولكن لافائدة من الندم بعد أن بلغ الأنبياء رسالاتهم . .

وبقدر ماتكون الروح قوية يكون القلب قوياً وذا صفات حميدة، وبقدر ماتكون الروح أمام النفس والمغريات والشيطان ضعيفة بقدر ماتكون ضعيفة ومهزومة .

وللروح مفرزات غير ماتأمر به القلب ومن تلك المفرزات الضمير فما هو هذا الضمير في عالم الإسلام ومعلاقته بالروح ؟

من خلال قراءتنا للقرآن الكريم تتضح آثار الضمير شأنه شأن الروح فلا يُحكم من خلال المقاييس المادية ولاتحدد ماهيته أوشكله ولا وزنه . .

والواضح أنه من خلال الأحكام التي يطلقها الإنسان العاقل تتعلق بفطرة منحها الله له تحكم على الأمور بخيرها وشرها بحلالها وحرامها . وهذه الأحكام يطلقها الضمير الذي وضعه الله في كل ذي روح حتى الحيوانات غير العاقلة .

كثيراً مانقول في حياتنا اليومية عن فلان أن ضميره حي وعن

فلان آخر ضميره ميت وعن فلان أنه قد باع ضميره . وإذا ماتعرضنا لأحد الناس وقد فعل شراً نقول له أليس لك ضمير ؟ فالضمير يتعلق بأوامر الروح وأوامر النفس تماماً كالقلب . فالحلال الذي تفرضه طبيعة المرء الخيّر هي طبيعة روحية أما الذي تفرضه طبيعة المرء بالحرام والشر فهي طبيعة شيطانية تتعلق بالنفس البعيدة عن صفاء الروح ونقاء القلب . .

وطالما أن الإنسان قابل للتغير والتحول فالصعود إلى الخير منوط بصعود الضمير وارتقائه من الأقل إلى الأكثر ومن الأدنى إلى الأعلى وبهذا فالضمير كلما صعد إلى الأعلى كبر وصارت محاكماته أكبر وأدق وصار باتجاه الخير ينمو وينمو حتى يصبح ذا ارتباط وثيق وقوي ومتين بالروح التي هي منبع النور والخير . .

وعلى العكس تماماً فالنزول إلى مهاوي الشر والحرام منوط بهبوط الضمير إلى الدونيات والأرضيات من الأعلى إلى الأسفل وكلما نزل الضمير وهبط صارت محاكماته عشوائية تجلب الشر والضرر . ويضعف هذا الضمير ويضعف ولكنه لايتلاشى لأنه قد يرتقي تارة أخرى بفعل الخير الموجه من قبل الروح . وفي هبوطه الشديد تتحكم فيه النفس التي غالباً ماتكون محطة يستقر فيها الشيطان ويتحكم بقراراتها الأرضية التي تؤدي إلى مانصفه بقولنا ضعف الضمير أو موته أو ماشابه ذلك من الأحكام التي نطلقها على أصحاب الضمائر المتنوعة والمتغيرة الصاعدة والهابطة الضعيفة والقوية . .

قد يقـول قائـل إن الضمـير من صنـع المجتمع فالتربية البيتية والشـارع والمـدرسـة جميعها تلعب دورها في خلق الضمير ، وأنه ليس موجوداً إلا من خلال مايلقنه المجتمع للفرد .

وحقيقة الأمر تختلف فهناك من الظواهر ماتدل بشكل قاطع أن الضمير مسألة أخرى تتعلق بالروح التي تستمد من الله سبحانه وتعالى . .

فعالم الحيوان الذي لايعقل ولاتربطه المفاهيم الاجتماعية العاقلة نجد فيه عالماً واسعاً من آثار الضمير تماماً مثلما نجدها في عالم الإنسان العاقل الواعي .

وفي هذا المجال نسأل : مالذي يدفع بالقطة للهروب والاختباء عندما تكسر آنية زجاجية في البيت ؟ ما الذي يدفع الكلب للحفر في الأرض كي يضع برازه ، ثم يعيد التراب على الحفرة ؟ ما الذي يدفع الكلب ذاتـه لرفـع رجله اليمنى عنـدما يريد أن يبوّل ؟ ما الذي يجعل الكلب يدافـع عن صاحبـه بكـل قوة إذا ماتعرض لخطر ما ؟ ما الذي يدفع الحصان إلى الامتناع عن الأكل حزناً على صاحبه إذا مات ؟ ما الـذي يدفـع الأسـد أن لايهـاجم فريسته من الخلف ؟ ما الذي يجعل الجمـل يمتنـع عن النـاقـة إذا ما شعـر أن أحـداً يراقبـه ؟ وكثيرة هي القصص التى تروي عن جمل اكتشف أن أحـداً رآه أثنـاء جماعـه للناقة وامتناعه عن الأكل والشرب حتى الموت ؟

هل ترتبط تلك الحيوانات بروابط التر بية الاجتماعية المكتسبة ؟ بالطبـع لا . . . إذاً فالضمـير مسألـة تتعلق بعـالم الأنـوار الإلهيـة إذا ماأريد لها أن تنحو نحو الخير والحلال . فهو في الفطرة منذ الخلق الأول يعيش مع الإنسان حتى موته . .

قال رســول الله ﷺ : [الحـلال بيِّن والحـرام بيِّن] [واستفت قلبك وإن أفتاك الناس] . ويعني ذلك عد إلى الضمير وأحكامه وكن عارفـاً بحـدود الحـلال والحـرام . ومتى عرف الإنسـان حدود النـاس وحـدود نفسـه وحـدود الشـرع فإنه غالباً لايخطىء ضميره في الأحكام التي يطلقها . .

غير أن أي إنسـان تجاوز حدود الشـرع وحـدود النفس واعتدى على حدود غيره فإن أحكامه المنطلقة من الضمير هي أحكام توجهها النفس الشيطانية وليس للروح علاقة بها . وهذا ماقلناه سابقاً من أن الـروح تمد الضمـير بالأحكـام الصحيحـة بينـما النفس تؤدي إلى الأحكام السلبية أو أنها تقضي على طريقة المحاكمة عند الضمير .

(٣)
العقل وعمليات التفكير غير المتناهية

* العقل وعمليات التفكير غير المتناهية

لما كان العقل أحد عوامل التكوين الإنساني الهامة فقد خصه القرآن الكريم بكثير من الآيات الكريمة وربط بين أصحابه وبين الآيات أو العلامات الكونية الدالة على وجود الخالق وعظمته . .

ومن عظمة القرآن أن وجه الحث على التفكير لأصحاب العقل تارة وأصحاب الفكر تارة ثانية وأصحاب الألباب تارة ثالثة . .

أما لفظة العقل ومشتقاتها فقد وردت في القرآن في تسعة وأربعين موضعاً . وكان خطاب الله سبحانه للناس بقوله بصيغة الخطاب تعقلون . وبصيغة الغائب يعقلون وفي جميعها تسبق اللفظة معجزة خلق قد تكون معجزة كونية وقد تكون متعلقة بالنفس الإنسانية أو بالرسالات وماجرى حولها من تشكيك تقصّده المعادون للأنبياء والمفسدون في الأرض .

أما لفظة الألباب فقد وردت في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً وقد خاطب الله سبحانه أصحاب الألباب كونهم أصحاب

عقول وعليهم استخدامها ليصلوا إلى حقائق الكون ومعجزات الخلق قد ربط القرآن الكريم اللب بالفكر كونهما يرتبطان ببعضهما فاللب جوهر الفكر والعقل تصدر عنه المحاكمات الفكرية والعقلية . .

أما لفظة الفكر ومشتقاته فقد وردت في أكثر من اثني عشر موضعاً وقد وردت يتفكرون في أكثر من موضع ونلاحظ أنها في سياق النص القرآني تأتي مطالبة بالتفكر والوصول إلى الحقائق . .

وباعتبار اللب هو الجوهر الذي يأخذ المدلول المادي والمعنوي معاً فقد آثرت أن أبدأ به لنرى أين موقعه في أحكام الله ومعجزاته . .

يقول تعالى في سورة البقرة الآية ١٧٩ : ﴿ ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب ﴾ فاللب الذي هو رمز من رموز التحليل العقلي أو الفكري أنيط به أن ينظر في هذا التناقض الظاهري الذي لا يعرف مقصده الحقيقي إلا هو أي إلا اللب وصاحب اللب هو الذي يدرك ذلك . فعلى قدر الذنب يكون القصاص ، وإذا مااقتص المشرع الإسلامي من صاحب الذنب بحق فإن المجتمع يسلم من الشرور ففي قصاصه ردع لغيره عن ارتكاب الذنب وفي ذلك سلامة المجتمع وحياته . وعلى العكس تماماً إذا لم يكن هناك قصاص فإن المجتمع يصبح كالغابة ، القوي يأكل الضعيف ، ويعيث الناس في الأرض فساداً وفي ذلك مقتل لحياة المجتمع وتوقف عن تقدمه واستقرار أهله . .

من هنـا فإن مخاطبـة أصحـاب العقول لم تأت عبثاً لأن الإنسان الـــذي لا يعمـــل عقله وفكـــره يرى في هذه الآيـة مخالفـة لحكمـة الله ورحمته ، وتناقضاً في طبيعة العلاقات الاجتماعية الإنسانية . .

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية ٢٦٨ : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ومايذكرُ إلا أولو الألباب ﴾ .

ففي هذه الآية العظيمة يقرر ربـنا أن يعطي الحكمة من يشاء من عبـاده والحكمـة هي المعارف والعلوم والأحكام والأخلاق . ومن أوتي هذه الأحكام والمعارف والأخلاق فإنه يؤتى خيراً كثيراً . . والخير هنا مطلق يشمل الخير المادي والخير المعنوي . إن ذلك لايتذكره أصحاب النفـوس إنـما الـذي يتذكره أصحاب الألباب أصحاب العقول الذين يعـرفـون معنى أن يؤتي الإنسـان الحكمـة . قال أبـوبكر بن دريد : « كل كلمـة وعظتـك إلى مكـرمـة أو نهتـك عن قبيح فهي حكمة » ، وأصحـــاب الألبـاب هم الـذين يدركـون الكـلام الخبيث من الطيب ويميزونه . ونحن في حياتنا العادية نطلق على أحد الناس أنه حكيم بمعنى أنـه متّـزن لايظلم ولا يُظلَم ويعـرف كيف يتدبر الأمور بحكمة دون تسرع أو جهل لأنه صاحب عقل راجح ولب ناضج واع . .

ويقول تعالى في سورة آل عمران الآية ١٩٠ ـ ١٩١ : ﴿ إن في خلق السمـوات والأرض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب

الـذين يذكـرون الله قيـامـاً وقعـوداً وعلى جنـوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ .

هنـا عمليـة صعـود إلى الرقي العلمي الذي يطلبه الله سبحانه من خلال الآيـات الكـونيـة التي فيهـا مايعجـز وفيهـا مايقف العقـل مندهشاً لعظمة الخالق الذي أبدعها . . الإنسان هنا لايفكر بنفسه ولا بجسـده ، صحيـح أن العـين وسيلة الإبصـار ولكن وسيلة التحليـل وربط الأشياء ببعضها هي مهمة اللب الذي هوجوهر العقل ، عظمة خلق السموات وخلق الأرض بما في الأولى من نجوم وكواكب ومجرات وبـما في الثـانية من جبال وبحار وأنهار وطبقات أرضية وبراكين وزلازل عظمتهـا ترتبـط مبـاشرة بحكم العقل بحكم أصحاب الألباب الذين يُعمِلون أذهانهم في التأمل والتفكير حتى يصلوا إلى عظمة الحقيقة . ومن هؤلاء أصحـاب الألبـاب ؟ إنهم الذين توصلوا إلى الإيمان بالله إيماناً راسخاً فهم بعد أن تدبروا الكون وتفحصوه ووقفوا عاجزين أمام عظمـة الخـالق ، لم يجدوا بعـد تفكـيرهم سوى طريق الله ، يذكرونه كيفـما كانـوا ويتفكـرون في خلق السمـوات والأرض فيحكمـون ويتيقّنون : ربّنا ماخلقت هذا باطلاً . لقد خلقته حقاً وحقيقة وأبدعته ونحن العاجزون عن إدراك كل أسراره مهما بلغت فينا درجات العلم . .

إذاً فأصحـاب الألبـاب أقـرب درجـة إلى الله لأنهم لم يمنعـوا العقـل عن ممارسـة حقـه ، بل هم الـذين دفعوا بألبابهم دفعاً ليترسخ الإيمان بربهم ويصبحوا في مجال اليقين الذي لايصله إلا أمثالهم ، من الـذين يُعمِلون اللب ويتفكـرون ويـوقنـون ويقـرّون ويخـرون سجداً متصدعة قلوبهم من خشية هذا الخالق .

ويقـول تعـالى في سورة المـائـدة الآية ١٠٢ : ﴿ قل لايستوي الخبيث والطيب ولـو أعجبتـك كثـرة الخبيث فاتقـوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ .

فرغم أن الآية خطاب لرسول الله ﷺ إلا أن أولي الألباب في سياق النص كل أصحاب العقول الخالصة من تحكم الهوى والنفس .

إن الطيب ليس كالخبيث وهذا طبعاً أمر بديهي ولكن الربط بين الإعجاب وبين الخبائث يرشد إلى أمر مهم في حياة الناس فالإعجاب من خصائص النفس والهوى وليس من خصائص العقل واللب . فقد يُعجب المسلم كثـرة النـاس الـذين يتلفظون بشعارات الإسلام فتبهره الكثـرة لأن الإبهـار والإعجـاب من خصـائص النفس فهنـا يريـد الله سبحانه أن يحذر المسلم صاحب العقل من الحكم المتسرع . وعليه أن يحرك لبـه وعقله في الأمـر . ليصـل إلى حكم صحيـح . وهذا الحكم يقـول إن النـوعيـة خير من الكمية . ومؤمن صادق خير من ألف من النـاس المنـافقين ، وفي الحكم الصحيح المنطلق من العقل الصافي هو

طريق الفلاح بينما الحكم النفسي قابل للسقوط في شرك الخديعة ويكون مصيره الهلاك . . وهذا ماينطبق عليه قول رسول الله ﷺ : [لايلدغ المؤمن من جحر مرتين] فالمسلم المؤمن فطن ذكي يُعمل عقله في الحكم على الأشياء ولايتسرع لأن في التسرع ندماً يجر عليه الوبال . ويقول تعالى في سورة يوسف الآية ١١١ : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ .

هنا يدخل القرآن تفاصيل العبرة من القصص ومن التاريخ . فقصة يوسف وإخوته ليست قصة عادية . فسورة يوسف هي السورة الوحيدة في القرآن التي ظلت آياتها تتحدث عن نبي واحد هو النبي يوسف عليه السلام . وأحداث القصة في سياق القرآن يعرفها كل مسلم مؤمن قرأ القرآن . . لقد كان في قصته مع إخوته عبرة لذوي العقول . ولماذا لذوي العقول ؟ لأنها درس في فضح الخيانة التي قد تحدث في كل زمن وكل مكان . الاخوة يتخلون عن أخيهم يغدرون به وامرأة العزيز تغدر بزوجها وتريد الغدر بيوسف فلم تفلح . وقد بدأ القصص القرآني فيها برؤيا ، أي بحلم رآه يوسف وانتهت بتفسير تلك الرؤيا . وهذا فيه من الصبر ما لايحصى لأولي الألباب . يوسف يتعرض للمحن والمصائب ويظل الله يحرسه وهو يصبر ويصبر حتى تحققت رؤياه التي رآها وهو طفل صغير فالنداء ياأولي الألباب .

والعبرة لأولي الألباب . فليشغلوا عقولهم في التاريخ تاريخ يعقوب وأبنائه وتاريخ حكم الهكسوس لمصر . . في سورة يوسف عبرة لذوي العقول في التاريخ . فهذه السورة لم تشِرْ ولا مرة واحدة لمصطلح اسمه (فرعون) بينما أشارت سور كثيرة لفرعون وموسى . وهذا دليل لأولي الألباب أن يوسف لم يعش في فترة حكم الفراعنة بل عاش في فترة حكم الهكسوس . وكثيرة هي العبر التي يمكن لأولي العقول الناضجة أن يستفيدوا منها ويدركوها .

ولأصحاب الألباب شأن في التمييز بين الصالح والطالح وبين الخبيث والطيب ذلك الصالح والطالح الذي ينطبق على بني البشر . فهل يستوي الأعمى والبصير ؟ هل يستوي العالم والجاهل ؟ وهل يستوي المؤمن الموقن بالآخرة والكافر المعرض عن الله وعن السبيل الصحيح ؟

يقول تعالى في سورة الرعد الآية ١٩ : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ .
ويقول في سورة الزمر الآية ٩ : ﴿ أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ .
ففي الآيتين سؤال استنكاري يقرر أن المساواة بين شيئين متناقضين مستحيلة فالذي يعلم ويؤمن بأن ماأنزل على محمد ﷺ

حق . ومن لم يؤمن به ولم يصدق بنزوله من رب العالمين كالأعمى الضال فالاثنان لايستويان وعلى أصحاب العقول أن لايخلطوا بين الاثنين ويميزوا بينهما .

والآية الثانية تأتي بالمقارنة بشكل آخر فاختصار المعنى فيها يقول إنه من المستحيل أن يتساوى الذين يعلمون والجاهلون وعلى أولي الألباب أن يفطنوا إلى ذلك . فالآيتان في العبرة والدرس تُوجّهان لأولي الألباب في أمر واحد ومسألة واحدة هي الإيمان وعدمه ، البصيرة والعمى ، العلم والجهل .

ويقول تعالى في سورة الحجر الآية ٥٢ : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب ﴾ .

فوحدانية الله أمر منوط بأصحاب العقول الصافية والألباب النقية ، وهم في الدرجة الأولى من المخلوقات المكلفة بالتفكير في الله ووحدانيته . . والأمر في ذلك يصعب كثيراً على من لايحكم عقله ويشغله ويسهل كثيراً على صاحب العقل المتحرك المميز الذي يدرك أن الله واحد لاشريك له . فأصحاب الألباب هنا هم أجدر الناس بالوصول إلى الإيمان السليم بوحدانية الله والاقتناع العقلي بأن هذا الكون لايمكن أن يكون أو يتحرك عبثاً ، ولايمكن أن يحركه خالقان أو إلهان لأن في ذلك انتقاص من قيمة العقل ، والعقل لايمكن أن يكون إلا سليماً معافى في عملية التفكير في المخلوقات وخالقها . .

ويقـول تعـالى في سورة ص الآيـة ٢٩ : ﴿ كتب أنـزلناه إليك مبـارك ليـدبّـروا آيـاتـه وليتذكر أولو الألباب ﴾ . فالله يخص أصحاب الألبـاب ليـدبـروا آيـات القـرآن الكريم فلا يدبرها الجاهل . ويتذكر مافيهـا أصحـاب العقـول وليس الـذي يتـذكر هو الجاهل العاجز عن المحـاكمـة . . إن القـرآن بما فيـه من آيـات علميـة ومعجـزات كونية وتعاليم حياتية في شتى مجالات الحياة لهي جديرة بأن يتدبرها ويتذكرها أصحاب الألباب وليس غيرهم .

ويقـول تعـالى في سورة الـزمر الآية ٢١ : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السـماء ماء فسلكـه ينابيع في الأرض ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ .

في هذه الآيـة الكـريمـة تعليم وتحـد للإنسان ولاسيما أصحاب العقـول وأصحـاب الألبـاب . فالله سبحـانـه أنزل من السماء ماء أي مطـراً فأدخله عيـونـاً ومجـاري ومسـالـك كائنة في الأرض ومياهاً نابعة يسقي بها الإنسـان أنـواع الـزرع فيخـرج ذا ألوان مختلفة . هذا عنب وذاك رمـان وذاك نخيـل ومـاشـابهـه وهـذا زرع من قمـح وشعير وذرة وسمسم وغيره يشرب من هذا الماء حتى يحين وقت جفافه ويثور على منبته فتراه مصفراً ثم يتكسر . كل هذه الدورة وتلك المياه التي يخزنها الله ثم يمنحهـا للإنسـان عبرٌ لأصحـاب العقـول السليمـة والفطـر

المستقيمة ، كي يأخذوا الدرس الكبير منها في دورة الإنسان الذي يبدأ خلقــه من ماء ثم يكـبر ويتصلب عوده ويخـرج عن طوقـه في شبـابـه ورجولته ثم يشيخ ويشيخ حتى ينحني ظهره ويسقط بسبب موته عاجزاً مقهوراً ، تلك العبرة ، وذلك الدرس الذي لايستفيد منه سوى الذي يحرك لبه وعقله بشكل سليم وصحيح .

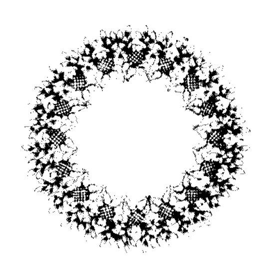
ويقـول تعـالى في سورة الـزمـر الآية ١٨ : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

في هذه الآيـة نصـل إلى آخـر مطـافنـا مع أولي الألبـاب فالله سبحـانـه يصفهم بأنهم الـذين اهتـدوا بعد أن استمعوا القول فاتبعوا أحسنـه . وفضـل الله على هؤلاء العبـاد هو فضل هدايته لهم وفضل منحهم العقـل الـذي يتبـع أحسن القـول واللب الـذي تجاوز كل الشكوك ووصل درجة اليقين والإيمان الراسخ بالله ورسله وكتبه وملائكته . .

إن الإيـمان الصحيـح لن يأتي عن طريق التسليم دون الفهم فالله سبحانه خص الإنسان بالعقل المميز فإذا لم يستخدم هذا الإنسان عقله في تحليـل الكـون ومعجـزات المخلوقـات فإنـه يكـون أشبـه بالحيـوانـات . فالعقـل الصحيـح هو طريق الإيـمان وبمعنى آخـر هو

الموصل إلى الإيمان لأن بالعقل يستطيع الإنسان معرفة الصواب والخطأ ومعرفة الله والقدرة الإلهية .

إن من مميزات العاقل الصحيح أن يكون مؤمناً . وأحدهما يكمل الآخر الإيمان يكمل العقل ويرقى به ، والعقل يكمل الإيمان ويجعله يسبر أعماق الوجود للوصول إلى الحقيقة . . ومن هنا كان ارتباط أولي الألباب بالعقل والفكر . . إنهم عاقلون وإنهم يتفكرون ليصلوا إلى حقيقة الإيمان وتذوقه في وعيهم الذي تصنعه الروح من خلال توجيه العقل إلى الصواب ومن خلال لمسة العطف النورانية التي تأتي منها لتمسح هذا الذي يدعى عقلاً وفكراً ولباً . .



(٤)

العقل بمفهومه الخاص

*** العقل بمفهومه الخاص:**

قلنـا في الصفحـات السـابقـة أن ارتبـاطاً وثيقاً يربط بين اللب والعقـل والفكـر. وقلنـا أن اللب منحـه الله سبحـانه في قرآنه الكريم صفة المادة وصفة المعنى، فهو أساسٌ وجوهرٌ والعقل والفكر يأخذان في الكتـاب الكـريم الصفـة المعنـوية في أكثر المجالات القرآنية. ولما كان للعقـل مجال الـدقـة في الحكم على الأمـور فان الآيـات القـرآنية التي خاطبت العاقلين والذين يعقلون هي في مجالات المعجزات الكونية من جهـة وفي مجالات الخلق الإنسـاني من جهـة ثانيـة وفي مجال التصديق الديني أو تكذيبه كونه أيضاً يدخل في طرْقِ الحجة بالحجة ودمغ الباطل دمغاً قاطعاً.

ان العقـل نعمـة اختص الله بها الانسـان. ووظيفته الأساسية الـوصـول إلى هداية الإنسان إلى الإيمان عن طريق المحاكمة والمنطق بالله عز وجـل، والانتفـاع بكـل ما وهبـه الله من قوى في تجسيـد هذا الإيـمان وتحـويله من مجرد تصديق عاطفي إلى صور حية ناطقة مجسدة الأفعال في أعمال طيبة تعود عليه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه بالخير.

تلك هي وظيفة العقل فاذا فشل في أدائها فقد وجوده وسلب من صاحبه صفة الانسان فلقد نفى القرآن الكريم العقل عن الكفار وحكم بأنهم لا يعقلون وأنهم لعدم انتفاعهم بما في الكون من آيات تنطق بوجود الله وتوجب طاعته قد انسلخوا من إنسانيتهم وتساووا بالأنعام والحيوانات بل انحدروا الى مستوى أقل منها .

يقول تعالى في سورة الفرقان الآية ٤٣ ـ ٤٤ ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ .

وقال تعالى في صورة الملك الآية ١٠ ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ .

إن الله سبحانه خلق الكون، السموات والأرض بما فيهما من نجوم وكواكب وبحار وجبال وما خلق من ليل ونهار وسحاب مسخر. كل ذلك خلقه كي يكون آية للعاقل الذي ينتفع بهذه المخلوقات من خلال عقله واستخدام قدراته في الاستفادة منها .

إذاً هي آيات معجزات وهي أيضاً مسخرة لخدمة أصحاب العقل الذين يشغّلون أذهانهم في سبيل الوصول الى الحقائق الكونية والوصول الى حقائق بعض خلق الله الذي طالب الله من عباده أن يفتشوا ويتعلموا كي يصلوا إليها وإلى حقائقها ولو قارنا بين خطاب

القرآن للعقل وحديثه عن النفس لوجدنا الفرق واضحاً جداً وقد سبق القـرآن الكـريم كافـة النظريات الفلسفية وكافة النظريات النفسية في التحليـل الـذي لا يجاريـه تحليـل وكيف ذا والقـرآن الكريم كلام الله سبحـانـه وليس كلام بشر. وسنرى فيما يأتي تلك الآيات القرآنية التي خُصصت للعقل وتلك التي خصصت للنفس لنرى ما لا يراه عالم أو فيلسوف.

*العقل والآيات الكونية :

يرد في القـرآن الكـريم آيـات تحرك العقـل البشري بما فيها من معجزات كونية وعندما ندقق فيها نرى أن الله سبحانه خص أصحاب العقـول بالنظـر اليها ومدحهم في آيات أءخَر لأنهم يحركون ذلك العقل باتجاه التفحص والتمعن ومن ثم الوصول الى حقيقة الخلق وقدرة الخالق.

(١) يقـول الـله تعـالى في سورة البقـرة الآيـة ١٦٤ ﴿ان في خلق السـماوات والأرض واختـلاف الليـل والنهـار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث، فيها من كل دابّة، وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقومٍ يعقلون﴾.

فالآيـة الكـريمة جمعت أهـم المظاهر الكونية المعجزة والتي تحتاج لإعمال العقل وهي في الأساس معجزات ودلالات لمن يعقل ويستخدم قوة دماغه في الوصول إلى الإيمان فمع ترتيب هذه المظاهر نجد:

١ ـ خلق السماوات والأرض.

٢ ـ السفن التي تجري في البحر بما ينفع الناس.

٣ ـ اختلاف الليل والنهار.

٤ ـ الماء المنزّل من السماء واحياء الأرض بعد موتها.

٥ ـ بث المخلوقات الكثيرة في الأرض.

٦ ـ تصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض.

فهـذه آيـات ست أو دلالات ست كل دلالـة تكفي كي تجعـل العقـل متحـركـاً وبسـرعـة نحـو الإيمان وحقيقة المعرفة والتعرف على الخالق القدير.

إن العقـل هنـا هو الأداة التي تبحث في خلق هذه السـماوات وهذه الأرضين. وتسبر أعماق القوانين الكونية وكلما توصل العقل الى كشف حقيقة ما برزت له ألغاز جديدة يظل ينظر إلى تحليلها كهدف متواصل له يبحث عن أسراره ويزيد مداركه من خلالها. ونلاحظ أن المخلوقات الستـة وقـوانينهـا كافية كي يشتغل العقل بها ما دامت البشرية موجودة على وجـه الأرض وهي في الحقيقـة أكـبر بكثير من أن يحيط بها عقل. غير أن ذلك لا يعني توقفه عن العمل. لأنها آيات معجزات كي يصل الى الإيمان بالله حق الايمان.

(٢) ـ ويقـول تعـالى في سورة الـرعـد آيـة ٤ : ﴿وفي الأرض قطـع متجـاورات وجنـات من أعنـاب وزرع ونخيـل صنـوان وغـير صنوان يسقى بماء واحد ونفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ .

في هذه الآيـة أيضـاً دلائـل كثـيرة على الخـالق لا يدركهـا إلا العـاقلون أصحـاب الفكـر النـيّر المتفتـح . . ففيهـا معجـزة» الأرض والنبـاتات والمياه ونجد فيها القطع من الأرض متجاورات لكنها مختلفة في الـتركيب والطبيعـة الخـاصـة . فهـذه القطعـة طيّبـة تنبت وهذه لا تنبت . هذه رخـوة وهـذه صلبـة وهـذه حمراء وتلك صفـراء وبين تلك وتلك جنـات من أعنـاب أي بسـاتـين فيهـا أعناب ونخيل متفرع إلى شجيرات وهو من أصل واحد ونخيل من نوع آخر منفرد بجذع واحد وشجـيرة واحـدة» . وتلك الجنـان تُسقى بماء واحـد هي والأشجـار الأخـريات ، فتنتج الحلو والحامض والمر، والكبير والصغير وذا الرائحة الطيبـة والـذي بدون رائحـة كل ذلـك معـروف أو هو بديهي وهـو يراه الإنسـان يسـير مع الأيـام دون مراقب لكن الله سبحـانـه خصص العـاقلين وقـال إن تلك آيـات ودلالات على القـدرة . وغير العاقل لا يمكن أن يتنبه لهذه الظواهر. وغير العاقل لا يمكن أن يفكر في كيفية خلقها وكيفية شربها وكيفية صنع ثمارها المختلف .

(٣) ويقـول تعـالى في سورة النحـل الآيـة ١٢ : ﴿وسخّـر لكم الليل والنهـار والشمس والقمـر والنجـوم مسخـرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ .

هنـا تأتي مسألـة أخرى هي أشد من الخلق معجزة. لقد كانت هذه المخلوقـات بحـد ذاتهـا معجـزة أمـام العقـل البشـري من حيث مسـارهـا وعلوهـا وطبيعتهـا. ولكن الله سبحـانـه في هذه الآيـة يأتي بمعجــزة التسخــير التي هي أشـد معجـزةً من الخلق. كيف يكـون التسخـير؟ وكيف سخـرت هذه الأشياء للانسان؟ فالله سبحانه سخر كل شيء لهذا المخلوق المسمى ـ إنسـانـاً ـ وطـالمـا أنها مسخرة بأمر الله فعلى الإنسـان أن يستخـدمهـا في خيره، واستخـدامهـا لا يكون عن طريق القلب أو النفس بل يكـون عن طريق العقـل الثاقب الذي تمده الروح بالنور والصبر والتأنّي. إن تسخير الله سبحانه الشمسَ وطاقتها والقمـر وجـاذبيـة النجومَ وأنوارها وأبعادَها لبني الانسان العاقلين دلالة عظيمـة على الخـالق وطريق للإيمان الحقيقي به، لأن في نظامها حماية للإنسـان ولـولا أن سخّـرهـا الله له لدمـرت بعضها عن طريق الكون المضطرب الذي لايضبطه ضابط فالله سبحانه خلق هذه الأفلاك ونظم سيرهـا وسخّـرهـا للإنسان وأذلّها لعلمه وتفكيره. أليس في ذلك دلالة وبرهان لقوم يعقلون، ويفهمون ويتدبرون؟

(٤) يقـول تعـالى في سورة الروم الآية ٢٤ : ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾. فمن بعض آياته سبحانه أنه يُري البرق للبشـر فمنهم من يخاف صاعقتـه فيفزع ومنهم من يطمع بمطره. وهنا يكمن التنـاقض في النفس البشـريـة. فمن هذه النفوس من يخاف إذا

أبرقت السماء ومنها ما يفرح طمعاً بنزول المطر وسقي الأرض وقد جاء إنـزال المطـر بعـد البرق الذي هو اشارة من اشارات المطر فإذا ما أنزل الماء أخذت الأرض تسترد حياتها بعد أن كانت بوراً وميتة إن في ذلك علامـات لمن يريـدون أن يتفهمـوا كيفية حصول البرق ويتفهمون أنه بمجرد تماس أي صاعقة من البرق بأي جسم فإنها تحرقه أو تحيله إلى فحم فإذا بدأ المطـر راح الإنســان والحيـوان والنبـات يستقبلون المـاء بالفرح طمعاً في الشراب وإنتاج الغذاء.

(٤) يقـول تعـالى في سورة الروم الآية ٢٤ : ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾. فمن بعض آياته سبحانه أنه يُري البرق للبشـر فمنهم من يخاف صاعقتـه فيفزع ومنهم من يطمع بمطره. وهنا يكمن التنـاقض في النفس البشـريـة. فمن هذه النفوس من يخاف إذا أبرقت السماء ومنها ما يفرح طمعاً بنزول المطر وسقي الأرض وقد جاء إنـزال المطـر بعـد البرق الذي هو اشارة من اشارات المطر فإذا ما أنزل الماء أخذت الأرض تسترد حياتها بعد أن كانت بوراً وميتة إن في ذلك علامـات لمن يريـدون أن يتفهمـوا كيفية حصول البرق ويتفهمون أنه بمجرد تماس أي صاعقة من البرق بأي جسم فإنها تحرقه أو تحيله إلى فحم فإذا بدأ المطـر راح الإنســان والحيـوان والنبـات يستقبلون المـاء بالفرح طمعاً في الشراب وإنتاج الغذاء.

هناك صاعقة قد تُحرق وتميت بسبب برقها، وهناك مطر يحيي. وهنـاك وجـه الموت وهنا وجه الحياة، وكلٌ يُخلق من الآخر بقدرة خالقه وصـانعـه إنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وبمعنى آخر فإنه من الموت يصنع الحياة.

أليس كل ذلك آيات لقوم يعقلون ويتفهمون؟ نعم إنه كذلك. وكذلك التفهّم الموصل إلى الإيمان بالخالق القادر.

(٥) يقـول تعـالى في سورة النحـل الآيـة ٦٧ : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾.

هذه الآيـة جاءت في سورة النحـل التي هي من أكبر المعجزات الإلهيـة، فالله ألهم هذه الحشـرة أن تتخـذ بيـوتـاً لها من الجبال وغيرها وتصنع العسل الذي فيه شفاء للناس. وفي هذه الآية ربط معجز بين تعليم الله للانسـان وإيحـائـه للنحـل بصنـاعـة السكر، النحل يصنع العســل والإنســان لو استخــدم عقله لاستعمـل النخيـل أي ثمـره ولاستعمـل العنب وصنـع منهـما سكـراً ومن السكـر تصنع المشروبات على شتى أصنــافهـا وفي بعضهـا رزق كريم. رزق كريم إذا صنّعـه الإنسـان ورزق كريم إذا باعـه للنـاس إن هذه الآيـة درس فيـه يعمل العقل ويحرك قدراته كي يصنع من التمر والعنب سكراً يستفيد منه هو وبنو جنسه.

(٦) ويقـول تعـالى في سورة الجـاثيـة الآية ٤ ـ ٥ : ﴿وفي خلقكم وما

يبث من دابـة آيـات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيـا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾ .

في هذه الآيـة جمع المعجـزتـين في معجـزة في رؤ ية واحدة . ففي خلق الإنـســان من نطفــة ثم علقــة ثم من مضغــة ثم خلق العظم وإكساؤ ه باللحم معجـزة . وخلق الحيـوانات بجميع أصنافها معجزة لقوم يوقنون أن الخالق هو الله وحده وكذلك اختلاف الليل والنهار. في الطـول والقصـر في الظلمة والضوء في النوم والنشاط معجزة وإنزال الله ماء من السماء معجـزة ، والـرزق الطيب الحاصل بسبب المطر معجزة وإحيـاء الأرض البـوار معجـزة وتصـريف الـريـاح لتكـون لواقح تارة ولتكون ملطفة للجو تارة معجزة .

كل ذلـك معجـزات على العـاقـل أن يتفحصهـا ويسبر أعماق أسبابها ونتائجها ليصل إلى حقيقة الخلق ويصبح الإيمان عنده يقيناً راسخاً .

إن الآيات الكريمة التي تتحدث عن مظاهر الكون من شمس وقمـر ونجـوم وأرض وجبـال هي جانب واحـد يطلب الله من الإنسان العـاقـل أن يتنبـه له ويـدرك ألغـازه وأبعـاده ليصل بالنهاية إلى صفاء الإيـمان الـذي يتملك العقل والقلب والنفس والجسد وليتملك مسيرة هذا المخلوق في هذه الدنيا ، هذه المسيرة التي فيها صلاح المجتمعات وتقدمها العلمي والفكري .

(٥)
العقل ودروس من الحياة

* العقل ودروس من الحياة:

في القرآن الكريم آيات تحاور الإنسان وتعلمه شؤون حياته وتتوجه إلى الذين يعقلون والذين لا يعقلون وتقارن بين النمطين أو بين الصنفين اللذين يختلفان اختلافاً جذرياً كون الأولين يستخدمون العقل ويحركونه في أخذ الدروس من القرآن وتطبيقها في كافة المجالات الحياتية وكون الآخرين لا يعتبرون ولا يستفيدون من دروس القرآن فيضلون الطريق ويضلون النفس فيسقطون في مهاوي الكفر والضلال ويكون مصيرهم الخسران في الدنيا والخسران في الآخرة.

(١) يقول تعالى في سورة البقرة الآية ١٧١: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.

فالكافر الذي أنكر وجود الخالق أو أشرك به وآمن بالشر وكل القوانين الشاذة المدمرة مثله كمثل الغراب أو أي حيوان يصرخ ويصرخ دون أن يفهم ماذا يقول والسبب أن هذا الكافر لا ينظر في معجزات الخلق الإلهية. إن هؤلاء الذين يكفرون صمٌّ لا يسمعون

الحق وبكمٌ لا يعـرفـون ماذا يقـولـون وعميٌ عن كل معجـزات هذا الكَـون وطـالما أنهم بهذه الصفات فان صفة العقل تنتفي عنهم فهم لا يفهمون ولا يعقلون، بل إن ملكة العقل معطلة عندهم فلا فرق بينهم وبـين الحيـوان الـذي ينعق وينعق ولا يفهم ما يقول ولا يسمع ما يقال ولا يرى شيئاً من كونه الذي يعيش فيه.

في هذه الآيـة درس لأصحـاب العقل النظيف، درس يقول إن الإنسـان العـاقـل هو الـذي يؤمن بربـه ويـرى من خلال هذا الإيمان معجزة الخلق في كل شيء موجود في هذه الدنيا.

وتـرد في الكتـاب الكـريم آيـات أخريات تؤدي نفس المعنى، فعن طريق التشبيـه والأمثلة التي يضـربهـا الله للنـاس يؤكد القرآن أن هؤلاء الذين لا يعقلون هم في ضلال.

(٢) يقـول تعـالى في سورة الأنفـال آية ٢٢ : ﴿لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾.

(٣) ويقول تعالى في سورة الفرقان: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾.

(٤) قال تعـالى في سورة الحـج الآيـة ٤٦ : ﴿أفلم يسـيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

(٥) ويقـول تعـالى في سورة يونس الآيـة ٤٢ : ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ .

إن هذه الآيات تربط بين الفهم العقلي وبين الاستماع والاقتناع بالإيـمان بالله وبـرسوله . فالذين لا يستمعون قول الحق ويشيحون عنه هم جاهلون لا يعقلون ولا يفهمون . ولو كانت لهم عقول فهيمة لآمنوا وفهموا نصائح القرآن والرسول .

* العقل وحكمة الفناء والعقاب والجزاء :

كما يعلّم القـرآن الكريم العقل الإنساني أن يقارن بين الإنسان والإنسـان ويكشف علاقـة الإيـمان به وعـلاقـة الكفر بالجهل ، فإنه في آيـات كثـيرات يضـرب الأمثـال من خلال المـوت والفنـاء والتـدمـير والعقـاب . وكـل ذلـك يقصد من ورائه أن يلتفت، العقل لأخذ العبرة والحكمـة وإلا لما ضربت الأمثـال . ولـو كان الإنسـان غير مؤ هـل من خلال عقله للاستفادة من الصبر لكان كالبهائم يأكل ويشرب ويتوقف عند حدود الحيوانية .

يقـول تعـالى : ﴿إنـا منـزلـوّن على أهـل هذه القرية رجزاً من السـماء بما كانـوا يفسقـون ولقـد تركنـا منهم آيـة بينـة لقـوم يعقلون﴾ العنكبوت ـ آية ٣٥ .

ففي هذه الآيـة تقـريـر إلهي بأن الذين فسقوا دمّرهم ولكن ترك منهم عبرة ماديـة وعـلامـةً ليتّعظ العاقلون وليستفيد أصحاب الألباب النقية الذين يدركون بعقلهم أن الأمم السابقة بمدنها وقراها وقصورها وبيوتها وسكنها لا تلبث ساعة إذا أمر الله بتدميرها. وما كانت لتدمر لو أنهـا لم تكفـر أو تفسق إن هذه الآيـة الدليلة على أن عمل الشر جزاؤه التدمير عبرة لأولي العقول الذين يأخذون الدرس ويتعلمونه ويعقلونه فلا ينحازوا عن إيمانهم واستقامتهم.

ويقـول تعـالى في سورة يس الآية ٦٨ : ﴿ومن نعمِّره ننكِّسه في الخلق أفلا يَعْقِلون﴾.

في خلق الإنسـان عبره للعقـل وفي دورة حيـاته حكمه للمنطق العاقل. فالإنسان الذي يطيل الله عمره يقلبه في خلقه ضعيفاً ويصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا في الضعف. والإنسان إذا طال عمـره رُدّ إلى الضعف بعـد القـوة، والعجـز بعد النشاط والنقص بعد الـزيـادة. ويقـول تعـالى في ذلـك في سورة الروم آية ٥٤ ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾. إن المراد من الآية الكريمة الإخبار لذوي العقول عن هذه الـدار الفـانية فإنها دار زوال وإنتقال ولهذا قال تعالى أفلا يعقلون أي ألا يتفكـــرون بعقـولهم في ابتـداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سنّ الكهـولـة ثم إلى الشيبـة ثم إلى الشيخوخة وليعلموا من خلال تحكيم عقـولهم أنهم خلقـوا لدار أخـرى. وهـذا الانتقـال دليل لعقولهم على قدرة الله تعالى وحكمةٍ في خلقه.

ويقول تعالى في سورة يوسف آية ١٠٩ : ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾.

ويقول تعالى في سورة المؤمنون الآية ٨ : ﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾.

ففي الآية الأولى خطاب لهؤلاء الذين كذبوا رسول الله ﷺ أليس لهم عقول يفكرون بها حين يرون آثار الأمم السالفة والتي أهلكها الله بسبب تكذيبها لأنبيائها ورسلها؟ أفلا يعتبرون ويحكّمون عقولهم ؟.

في هذه الآية ردع وزجر للكافرين المكذبين بأن الله سيهلكهم مثلما أهلك من قبلهم والدار الآخرة خير من الدنيا أفلا يستعملون عقولهم ليعرفوا أن الحياة في الجنة خير من الحياة في الدنيا.

وفي الآية الثانية درس للإنسان الذي يجب أن يُعمِل عقله في مسألة الخلق والموت وهذا العقل هو الموصل إلى الله إذا ما تحرك بشكل صحيح ومنطقي ولم يخالف قانون الخلق المنطقي الذي تكفل به رب العالمين.

وفي كثير من الآيات يضرب الله الأمثال لعل الناس تعقل وتدرك ما المقصود من ورائها. فالحياة متاع وغرور والآخرة أبقى. وعليك أيها المسلم أن لا تأمن للمشركين إن كنت تعقل. وما حرّمه الله

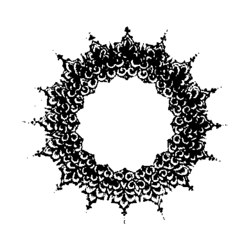
وما حلله واضح لك أيها العاقل، وهذا القرآن أُنزل عربياً لعلك تعقل أيها المسلم. والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم تصبح طفلاً وتكبر وترد إلى أرذل العمر أليس في ذلك تحريك لعقلك حتى يصحو من غفلته ويعود إلى إيمانه بالخالق؟

يقول تعالى في سورة العنكبوت الآية ٤٣ : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا الصالحون﴾ .

إن خلق الكون والسماء والأرض والجسد والحيوان والنبات والموت والحياة والتدمير والجنة والنار كل تلك أمثلة حية من الحياة ماضيها ومستقبلها وحاضرها يضربها الله ليعقلها الإنسان الفهيم الواعي العالم بالأمور. والجاهلُ بعيد عنها لأن عقله لا يستوعبها ولا يريد أن يستوعبها لأنه لا يريد الإيمان فهو كالأنعام بل أضلّ سبيلا .

وفي آيات أخريات وصف الله اليهود والكفار بأنهم قوم لا يعقلون لأنهم حرّفوا التوراة وعبدوا الأوثان وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، وكذبوا على الله ونسبوا ابراهيم عليه السلام لهم. وزوروا التاريخ ومن ثم عادوا رسول الله ﷺ فهم قوم لا يعقلون ولا يريدون أن يعقلوا رغم ما بين أيديهم من بيان الحق ودلائل الطريق الصحيح من الطريق المعوّج ولو كانوا يعقلون ماتقلبوا في ديانتهم وزوروا التوراة وحاولوا مرارا وتكرارا أن يقنعوا المسلمين أن ما يقولونه هو من عند الله

وما هو من عند الله . ولو كانوا يعقلون لآمنوا برسالة محمد ﷺ لأن منبع القرآن والتوراة التي أنزلت على موسى واحد هو السماء ، وهو من عند الله ، إن حرص القرآن على مخاطبة الإنسان بعقله أكبر دليل على أن ميزان الإيمان هو في البداية ميزان عقلي . فلا يريد الله من الإنسان أن يؤمن دون تفكير ودون النظر في معجزات الخلق الكونية والبشرية . ولذلك خاطب الذين يعقلون بأن يفكروا بالسماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والكواكب وأن يفكروا أن هذه الأمثال يضربها لهم لأن فيهم ملكة العقل التي تحلل ومن ثم تؤمن .



(٦)
الفكر أرقى درجةً وأوسع تحليلاً

* الفكر أرقى درجة وأوسع تحليلاً.

مجال الفكر في الإنسان أوسع أفقاً وأكثر تحليلاً، فما يميّز الإنسان العاقل عن الحيوان أنه يعقل ويفهم ويميّز، وما يميّز المفكر عن العاقل أن الأول يرتقي بالعقل إلى درجات أعلى في إشغال ملكات العقل والذهن والوعي. فما يقال عن إنسان أنه عاقل يعني أنه يفهم ويميز الصالح من الخبيث أما عندما يقولون عن إنسان أنه يفكر يعني ذلك أنه إلى جانب العقل يستخدم ملكاته في التحليل والتركيب ليصل إلى أعلى درجات الإيمان التي وصفها الله تعالى في كتابه الكريم. فالذين يتفكرون لا يريدون التوقف أو تعليق الأشياء عند حدودٍ معينة، إنما يريدون أن يعرفوا مبدأ الغاية ومبدأ السببية ومبدأ العلة والجوهر والعرض. وهذه أمور لا يصل إلى مستواها إلاّ من تفكّر وأشغل هذا العقل بها.

يقول تعالى في سورة آل عمران الآية ١٩٠ ـ ١٩١: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب

الـذين يذكـرون الله قيـامـاً وقعـوداً وعلى جنـوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض. . ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فَقِنَا عذاب النار﴾.

فهـذه الآيـة مرت معنـا في الصفحات التي ناقشنا فيها مصطلح أولي الألباب.

ومختصـرهـا: أن في خلق السمـوات والأرض واختـلاف الليـل والنهار لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوّة الخالصة من شوائب الوهم والحس.

أمـا الآية الثانية والتي جاءت مكملة للآية السابقة ففيها يكمن سر معـرفـة الله وخصائص أصحاب تلك المعرفة فأولو الألباب يحركون أدمغتهم ليدركوا أن خلق السماء والأرض واختلاف الليل والنهار دلائل على وجـود الخـالق. فإذا استدلوا وآمنوا راحوا يعبدون خالقهم بحب واخـلاص في كل لحظـة من لحظـات حيـاتهم فإذا ما أحبـوا وأخلصـوا راحـــوا يعملون فكـرهـم ويُشغِلونـه في خلق السمـوات والأرض كيف ارتـفـعت تلك وبسطت هذه كيف سارت النجــوم بنظــام محدد رغم وجودها بالملايين؟ كيف وُضعت هذه الجبال لتكون رواسيَ في الأرض تحافـظ على اتـزانهـا. كيف تختـزن الميـاه ثم تخرج على شكـل ينابيع تسقي الزرع وتحيي أرضاً بعد موتها؟ كل هذه التساؤلات يطرحها فكر المؤمن على نفسه وعندما يصل إلى حقيقة المعجزة وعجز الإنسان عن الـوصـول إلى أسـرارهـا يخرّ متحسراً موقناً، ويقول ربنا سبحانك فقِنا

عذاب النـار. فالفكـر الـذي توصـل إلى إدراك ظواهـر الأشياء يدفع بصـاحبـه للخـوف والرهبة من جهنم التي أعدت للذين يشركون بالله ويقولون بطبيعة الأشياء ومصادفة خلق السماء والأرض، وما شابه ذلك من مخلوقات، والآيتان الكريمتان تحدّدان مراحل معينة يقطعها المؤمن ليصـل إلى قنـاعـة تامـة أن المطلوب منـه رضـا الله وعـدم دخوله النار المحرقة وهذه المراحل هي:

١ ـ خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأصحاب العقول.

٢ ـ ذكر الله الصانع القادر في كل لحظة من لحظات الحياة.

٣ ـ التفكير العميق بما صنع الله.

٤ ـ التوصل إلى القرار ـ هو الإيمان اليقيني والخوف من عذاب الآخرة.

اذاً فالفكـر طريق اليقـين وطـريق الـوعي إلى الحقيقة، وطريق معرفة الله القادر. ويقول تعالى في سورة النحل آية ٦٩: ﴿ثم كلي من كل الثمـرات فاسلكي سبـل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألـوانـه فيـه شفـاء للنـاس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ فهذه الآية جاءت بعـد الآيـة التي يقـول الله فيها: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾. وأصل الوحي هنا الإشارة السريعة. وهذه من عجائب قدرة الله وصنعته والوحي هو إلهام

ليسخـرهـا الله لما خلقها. تبني بيوتاً على أشكال هندسية عجيبة يعجز عنها العقل البشري ولها تنظيم في حياتها يدهش الألباب.

ويخاطبها الله عن طريق إلهامه في الآية التي نحن بصددها فيقول كلي من كل ثمـرة تشتهيهـا، واسلكي الطرق التي ألهمها إياك ربك أن تسلكيهـا وتـدخـلي فيهـا لأجـل طلب الأشجـار والنباتات التي تأكلين منهـا. إن هذه الطـرق ذلـولة لك مسهلة لتنقلك لا يتوعر عليك مكان تسلكينـه. كل ذلـك لتصنعي عسـلاً أبيض وأحمـر وأصفـر حسب ما تأكلين وحسب فصـول العـام وحسب أنواع الورود والأزهار. تصنعينه في بطنـك بقـدرة الله وتخـرجينه يشفي من الأمراض. فلا دواء دون أن يكون العسل فيه. قال ابن مسعود رضي الله عنه العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي رواية عنه ﷺ: [عليكم بالشفاءين القرآن والعسل].

إن في كل ذلـك آيـة لقـوم يعتـبر ون، فإن من تدبّـر وتفكـر باختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حقَّ التدبير وحقَّ التفكـير يعلم قطعـاً أنـه لا بد من قادر حكيم يلهمهـا ذلـك، ويحملهـا عليـه وهي تأكل الحامض والمر والحلو والمالح وحتى الحشائش الضارة، فيجعله الله عسلاً حلواً وشفاء.

فما في الآيـة من صنـع النحـل لبيوتها وصنعها لعسلها معجزة لا يمكن أن يفكـر فيهـا إلا المفكر العاقل، ومن الطبيعي أن لا يفكر فيها

جاهـل أو غافـل لأنهـا بهذه الصـورة وهذا العمل تستحق أن يستعمل فكـره ليصـل إلى حقيقـة المعجـزة الإلهيـة والقدرة الربانية في تصريف خلقـه من إنســان وحيوان وحشرات ونبات، وعلى الذين يتفكرون في هذا الخلق العجيب أن يسألـوا أنفسهم هل يستطيـع الإنســان صناعة العسـل دون النحـل؟ بالطبع لم نسمع إلى الآن ورغم تقدم العلوم أن إنسـانـاً استطـاع أن يصنـع العسـل من خلال المخـبر أو ما شابه ذلك صحيـح أن مربي النحـل يضـع السكر لها ولكن صناعة العسل لا تتم إلا في بطنها وهذه خاصيتها التي منحها الله لها وميّزها بها عن غيرها.

ويقـول تعـالى في سورة الحشر الآية ٢١ : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾.

هذه الآيـة جاءت بعـد الآيتـين اللتين يقول تعالى فيهما: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ١٩ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ٢٠ ﴾.

فهـذا القـرآن العظيم لو أنـزلـه الله على جبـل وهو من الصخر الصلد لرأيتـه خاشعـاً متصدعاً خوفاً من الله فكيف أيها الإنسان تجحد بكــلام الله الـعظيم؟ هذا القــرآن الــذي جمع كل شيء، الأولــين والآخرين وعلومهم وفلسفاتهم وتواريخهم من خلال صريح عبارته تارة

ومن خلال رمـــوزه تارة أخـــرى. ومن خلال ما فيـه من فيض الإيـمان والصلة بالله ومحبـة رسله وكتبـه، ومن خلال تربيتـه التي لا تعلو عليهـا تربيـة، هذا القـرآن ومـا فيه من معجزة آيةٌ لأصحاب الفكر. والأمثال التي يضـربهـا الله للنـاس من خلال هذا الكتـاب العظيم لجديـرة بأن يعمـل الإنسـان فكـره فيها ليصل إلى القناعة واليقين بأن الله واحد لا شريـك له. إن هذا القـرآن يدفـع الإنسـان العاقل دفعاً ليفكر في هذه الأمثـال وليعتـبر ولم يضـرب الله الأمثـال عبثـاً بل أراد من ورائها أن لا يضل الناس ولا تضل عقولهم وأفكارهم.

ويقول تعالى في سورة يونس الآية ٢٤: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخـــذت الأرض زخـــرفهـا وازّينت وظن أهلهـا أنهم قادرون عليهـا أتـاهـا أمـرنـا ليـلاً أو نهاراً فجعلناه حصيداً كأن لم تغنِ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

هنا يفصل الله تعالى الآيات للقوم الذين يستخدمون أفكارهم السليمـة وهـذه الآيـات والـدلالات والعلامات تأتي من خلال تشبيه الحياة الدنيا ودورة الإنسان فيها كماء أنزله الله من السماء فاختلط بنبات الأرض حتى تشـابـك وزين الأرض بأصنافه وأشكاله وألوانه كعروس أخذت من ألوان الثياب والزينة وتزينت وظن أصحابها أنهم بها تمكنوا من الدنيا وظنوا أنهم أخلدوا بهذا النعيم ونسوا ربهم وابتعدوا عن طريق

الحق فإذا أتاها أمر الله وقضاؤه بإفنائها وتدميرها جعلها حصيداً كأنها لم تكن عامرة بالأمس. لقد شبه الله الدنيا وبهجتها وإقبالها على الناس وركونهم لها، بالنبات الذي يقوى ويشتد بسبب الماء ويزهو لكنه لا يلبث أن يصفر ثم ييبس ثم يكون هشيماً وحطاماً. فحياة الإنسان شبيهة بالنبات والزرع ولا يعي هذا التشبيه سوى الذي يفكر ويتفكر ويتدبر. فهذه الأمثال عبرة للمفكرين الذين يقارنون الأشياء ببعضها بوعي وبصيرة حتى يصلوا إلى طريق الحق طريق معرفة الله والعمل الصالح في الدنيا.

وقوله تعالى نفصل الآيات فيه تبسيط للإنسان العاقل. فقد تلغز الأمور على الإنسان لكن الله سبحانه يفصل الآيات حتى تكون معرفة أسرارها سهلة قابلة للفكر دون تعقيد، ويتقبلها المفكر بقناعة وإيمان وتبصّر.

وقال تعالى في سورة الرعد الآية ٣: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليلَ النهارَ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ هذه الآية تأتي في سورة الرعد بعد الآية التي يقول سبحانه فيها: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش. وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾.

فبعد أن بيّن سبحانه دلائل قدرته في السموات وما فيها أردف ذلك ببيان قدرته في الأرض وما فيها، لقد بسط الأرض أمام أعين الناس لكبرها فهي كالسطح الكبير العظيم، ثم جعل فيها جبالاً ثوابت جعلتها تستقر وتثبت وكأن الجبال أوتاد لها. ثم جعل في هذه الأرض أنهاراً لمنافع العباد. ثم أنبت بسبب الماء نباتات من كل نوع ذكراً وأنثى، وجعل الليل يغطي النهار ويستره. إن في ذلك كله لآياتٍ ودلالات واضحة لقوم يتفكرون. إن تكوّن السماء والأرض وما فيهما من معجزات دليل قاطع وبرهان ساطع على وجود صانع حكيم دبّر أمرها وهيأ أسبابها. والفكر هنا تصرف القلب في طلب الشيء. والفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للإنسان دون الحيوان ولا يقال إلا فيها يمكن أن يكون له صورة في القلب ولهذا روي عن رسول الله ﷺ [تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله فإنه لا تحيط به الفكرة] إذ الله منزه أن يوصف بصورة.

إن الله سبحانه الذي منح الإنسان ملكة الفكر يأمره بأن يُشغل هذا الفكر في موجودات الوجود حتى يصل إلى الإيمان الراسخ بالله الخالق العظيم، ويقول تعالى في سورة الجاثية الآية ١٣ :

﴿وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

فكما تحدثنا في السابق أن معجزة الخلق برغم عظمتها فإن

معجـزة تسخـير الله لمخلوقـاتـه للانسـان أعظم شأنـاً . وفي هذه الآيـة الكـريمـة يوضح الله سبحانه كيف سخّر ما في السموات من شموسٍ وكـواكب وأنـوار وعلوم تتعلق بها ، للإنسـان وكـذلك كيف سخّر ما في الأرض من بحـار وأنهـار وبـترول وخـامـات من حديد وذهب ومعادن أخرى لهذا الإنسان ، إن كل هذه المخلوقات غير عنيدة وهي طوع فكر الإنسان وعقله . هي مسخرة لتكون مطواعه طائعةً لخدمة البشر .

ويقـــول تعـالى في سورة الـروم الآيـة ١٨ : ﴿أو لم يتفكـروا في أنفسهم ما خلق الله السمــوات والأرض ومــا بينهـما إلا بالحق وأجـل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ .

وهنـــا نرى السؤال الاستنكــاري الــذي ينبـه النـاس ، ينبـه أفكـــارهم إلى أن الله خلق السـماوات والأرض ومـا بينهـما بالحق والى أجل مسمى عند الله ومعروف لديه ففي الآية حثٌّ على معرفة أن الله خلق مخلوقـاتـه بالحق وليس بالباطل . وعلى الإنسان أن يفكر في ذلك ليصل إلى الإيمان واليقين بأن الله واحد لا شريك له .

ويقـول تعـالى في سورة الـروم الآية ٢١ : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ .

وجاءت هذه الآية بعد الآية التي يقول الله فيها : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ .

ألم ير الإنسان أن من قدرة الله سبحانه خلق حواء الأولى من ضلع آدم وخلق كافة الإناث من نطف آبائهن. لقد خلقهنّ الله لتميلوا اليهن وتأنسوا بهن لأنهن من جنسكم لا من جنس آخر ولذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلفة والسكون وما بين الجنسين المختلفين من تنافر. لقد خلق الله بين الرجل والمرأة محبة وشفقة متبادلتين.

فليتصور أصحاب الفكر لو أن المرأة والرجل خُلقا دون رحمةٍ ومحبةٍ ماذا يمكن أن تكون علاقة الزواج بينهما؟ ألا تكون أشبه بغابة من الحيوانات غير العاقلة كل ذكر يعاشر من تحلو له وكل أنثى تمارس هواها المادي مع من تصادفه؟ فمن حكم الله سبحانه أن جعل بين الزوجين تلك المودة التي لا تقاس بمقاييس المادة أو الوزن إنها شيء عظيم، سرٌّ من أسرار الله الذي أمال قلب الزوج لزوجته وقلب الزوجة لزوجها. والقاعدة التي عليها تصوّرُ المجتمع الإسلامي أن لا يحب الرجل امرأة أكثر من زوجته أم أولاده، وأن لا تحب المرأة رجلاً سوى زوجها والد أبنائها ولا تفضل أي رجل غريب عليه.

إن في ذلك معجزة إلهية لمن يريد أن يتفكر في حكمة الله وقدرته على تأليف القلوب بين المحبين من الأزواج.

ويقول تعالى في سورة الزمر الآية ٤٢ : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت

ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ .

في هذه تكمن معجـزة الموت والحياة فالله سبحانه يتوفى الأنفس يقبضهـا عنـد فنـاء آجـالهـا وانقطاع رزقها من الدنيا، والتي لم تمت في منـامهـا، ويقبضهـا الله يعيد إليها أرواحها فتستيقظ إلى أجل مسمّى أي إلى وقت محدد.

والنـوم كالمـوت، فلننظـر هل يشعر الانسان بشيء في نومه. قد يتوفاه الله وهو نائم وقد يردّ له روحه فيفيق وقد قال ابن زيد عن رسول الله ﷺ [لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون].

إن في هذه المعجـزة آيـاتٍ عظـام للناس الذين يُشغِلون فكرهم فيبصـرون البصيرة الثاقبة الموصلة إلى الإيمان الحقيقي بالله سبحانه. وقد أخرج البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ إذا أخـــذ مضجعـــه من الليـل وضـع يده تحت خده ثم يقـول [اللهم باسمك أموت وأحيا] وإذا استيقظ قال [الحمد لله الذي أحيانا بعدما أمـاتنـا وإليـه النشـور]. فالنـوم شبـهُ الموت وقدرة الله قضت أن يأخذ الأرواح فيبقي عنده من أراد موتها ويعيد من أراد أن تستمر حياتها الدنيا.

(٧)
النفس في عالم الإنسان

*** النفس في عالم الإنسان :**

للنفس البشـريـة عالم رحب واسع يتسع لما لا يتسع له غيره من مكــونــات المخلوق البشـري ولهـذا السبب خص الله النفس بآيـات كثـيرة، فلا تكـاد تخلو آية أو سورة من الحديث عن النفس. ولما كانت هذه المفردة تأخذ أبعاداً متنوعة أو مختلفة فقد تحدث القرآن الكريم عنها وعن مدلولاتها. وخصها بالتفصيل والإسهاب لما لها من قوة ومكانة في الإنسان.

وقـد ورد لفـظ النفس ومـا يشتق منهـا في مائتين وخمسة وتسعين موضعـاً. واتخـذت معاني كلية وجزئية. فهي تفيد الإنسان الكلي بحد ذاتـه كما ورد في سورة النسـاء الآيـة (١) : ﴿يـا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ وقوله تعالى : ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فسـاد في الأرض فكأنـما قتـل الناس جميعاً﴾ المائدة الآية **٣٢**. وقـولـه تعـالى في سورة المائدة آية **٤٥** : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن﴾.

وقـولـه في سورة الاسراء لآية ٣٣ : ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ ونفهم من النظـرة الكليـة للنفس أن الله سبحانه جعل قتل النفس البشرية بمثابة قتل الجسد. ولذلك فإن من قتلت نفسه أو ماتت فكأنما مات لأن موضع النفس من الجسد كموضع الروح في الخلق البشـري . . وقتـل الإنسـان جسـداً يعني أيضـاً قتل نفسه، ولهذا كان المعنى الكلي الشامل لكلمة نفس يعني تماماً الكيان البشري المخلوق.

وتفيد النفس معنى جزئياً في ذات الإنسان كما في قوله تعالى في سورة البقـرة آيـة ٢٠٧ : ﴿ومن النـاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ وقوله في سورة المائدة آية ٣٠ : ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبـح من الخـاسـرين﴾ وقـوله في سورة يوسف الآية ٧٧ : ﴿فأسرها يوسف في نفســه ولم يبـدهـا لهم﴾ . وقـوله تعالى في سورة الجاثية آية ١٥ ﴿من عمـل صالحـاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ وتأخذ النفس كما أشرنا عالماً واسعاً من التحليلات الدينية والفلسفية لما فيهـا من ظواهـر وعـلامات كثيرة تشير إلى سير عملها ونشاطها ومجال حركتهـا . وعلاقتها بالعقل والقلب والجسد، ومن ثم علاقتها بالأهواء والنزوع نحو الشر أو الخير وجميع ذلك نجده في القرآن الكريم.

وقد وردت صراحة ثلاث آيات تبين مستويات النفس من حيث الإيمان. فهناك النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة.

قال تعالى في سورة يوسف آية ٥٣ : ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلا مارحم ربي﴾ .

وقال تعالى في سورة القيامة الآية (١ + ٢) : ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾

وقال تعالى في سورة الفجر الآيات (٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠) ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ .

ومن خلال قراءتنا لكافة الآيات القرآنية نرى أن النفس في غالبية عملها لا تكون إلا مكاناً للشر والفتنة . ففي كثير من الآيات تقترن بالشيطان وبالهوى وبفعل السوء وفي آيات أخرى تقترن بالحيرة وكمن الأسرار التي لا تخفى على الله .

*** النفس في حالة الاطمئنان :**

النفس المطمئنة هي أرقى درجات الرفعة التي تصل لها النفس البشرية فلم ترد في القرآن الكريم في هذه الصفة إلّا في هذه الآية ولعل الوصول إلى الاطمئنان يحتاج الكثير من المسلم حتى يرقى إليه . ولو عدنا إلى القرآن الكريم وتساءلنا متى تطمئن النفس وتركن إلى السعادة؟ لوجدنا أن كثيرا من الأسباب لا بد أن تتوفر حتى يرتقي الإنسان إلى النفس المطمئنة . ووجدنا أيضاً أن النفس بذاتها ولوحدها

لا يمكن أن تصل إلى هذا الرقي فهناك من الأمور لا بد أن تتوفر، وهناك علاقات لا بد أن تكون قوية بالقلب والعقل والروح حتى تكون النفس مطمئنة وحتى بالجسد نفسه الذي هو مادة هذه النفس التي تنعكس عليها الأوامر فينفذها الجسد إن كانت خيراً أو كانت شراً.

فالنفس المطمئنة هي تفاعل إيجابي أساسه الإيمان، فالروح التي أراد الله لها أن تكون نقية صافية مؤمنة تتفاعل بالعقل الذي آمن بالله من خلال التفكير بمعجزات الكون والخلق كافة، وإذا ما تفاعل العقل بالروح نشأت الروحانية المندمجة بالواقعية العقلية وصبت بالقلب الذي يبث إلى النفس المحبة الربانية فتطمئن وتسكن، ويكون الإنسان بكل أجزائه مكرساً لعبادة الله ومحبته وعندها ينفذ الجسد وهو أداة النفس ماعليه من عبادات تجاه ربه ومن معاملات حسنة تجاه المخلوقات البشرية وغير البشرية.

وبذلك يكون الفرد الإنسان قد حقق في روحه وعقله وقلبه ونفسه وجسده علاقة قوية بالخالق، وبذلك يُدخل الله النفس جنته راضياً عنها ويُدخلها في عباده الخاصين. والدخول في العبودية الخاصة لله لها أوصاف ولها أسباب جاءت في القرآن الكريم بقوله تعالى:
﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين

يقـولـون ربنـا اصـرف عنـا عذاب جهنم إن عذابهـا كان غرامـاً. إنها ساءت مستقـراً ومقـامـاً والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلـك قوامـاً والـذين لا يدعـون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما﴾ سورة الفرقان (٦٣ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨).

فلو ربطنـا قولـه تعـالى فادخـلي في عبـادي مع صفـات العبيـد المخصصـين لله، لوجـدنـا أن النفس التي يريد الله أن تطمئن لا بد أن تحمـل خصـائص عبـاد الـرحمن. وهي التي وجـدناها مفصلة في الآية السـابقـة وهـذه الصفـات هي ١ ـ عدم الاشـراك بالله ٢ ـ التوازن في الحيـاة ٣ ـ الابتعـاد عن الـزنـا ٤ ـ عدم قتل النفس بغير حق ٥ ـ عدم التكـبر والغـرور ٦ ـ السجود وذكر الله ليلاً نهاراً ٧ ـ الخوف من عذاب جهنم ٨ ـ الـدعـاء لله أن يبعـد عنهم جريمـة دخـول النار لأن دخولها بالنسبة لهم أمر عظيم شديد على النفس.

وأخيراً يكون الجزاء دخول الجنة. نلاحظ في هذا السياق وضع الأسبـاب واضحـة لتصـل إلى النتيجـة الواضحة أيضاً وهي الدخول جنّـة الله التي اختـارها لهذه النفس المطمئنة العابدة الخائفة. وهذا مالا نجده في مستويات النفس الأخرى.

هذا عن أرقـى مستـويـات النفس التي ألهمهـا الله التقـوى والإيمان. فماذا عن المستويات الأخرى؟

يقـول تعـالـى في سورة الـشمس الآيــة (٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠):
﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسّاها﴾.

فالنفس في الخلق الأول وضـعَ الله فيهـا الخيـار والاختيـار فهي ملهمة أن تعرف التقوى وتعرف الفجور. فمن زكّى النفس وارتقى بها يفلح ومن جعلها تتبع الهوى والشهوات تخيب ويخيب معها صاحبها.

إن النفس البشـريـة في أسـاسهـا لطيفـة مودعـة في الجسم منها الصفـات المـذمـومـة ومحل الأوصاف السيئة بينما الروح محل الأوصاف المحمـودة. وجميـع صفـات النفس من أصلين أحـدهما الطيش والثاني الشـره وطيشهـا من جهلهـا وشرهها من حرصها وطمعها في مشتهيات الـدنيـا. ومن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر. والصبر جوهر العقل والطيش صفة النفس والعقل يقمع الهوى.

وصفـات النفس لها أصـول من أصـل تكـوينها لأنها مخلوقة من تراب ولها بحسبه وصف، وقيل وصف الضعف في الآدمي من التراب ووصف البخـل فيـه من الطـين ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون ووصف الجهـل فيـه من الصلصـال. ولمـا كانت النـار تعمل عملها في الفخار وهي أساس تركيبة الشيطان فإن الإنسان فيه جزء من الشيطنة وهـذا التأثـير الشيطـاني يظهـر في الخداع والحيل والحسد. فمن عرف أصـول النفس عرف أن لا قدرة له عليهـا إلا بالاستعـانـة بخالقها عز وجل وعبادته وترفّعه عما يذم ويودي إلى المهالك.

والنفس إذا ما تمكن منهـا الهـوى والفجـور يتملكهـا الشيطـان فتلجأ النفس إلى القلب تطالبه باستعمال الجوارح في الفجور. وتلتقي النفس مع الشيطـان في أنهـما يتـوافقان في الرغبة. فالنفس تأمر بتناول الشهـوات ومتـابعـة الهوى المباح منه والحرج والشيطان يأمر في الأصل بالكفـر والشـرك والشكـوى والتهمـة لله عز وجـل في وعـده وفي الفرح بالمعاصي والتسويف بالتوبة. فخاطر النفس وخاطر الشيطان مذمومان محكوم لهما بالسوء.

كثير ون يقولون أن لا وجود للشيطان ويقولون إن النفس الأمارة بالسوء هي الشيطان ذاته. والحقيقة أن النفس محكومة لحاكمين حكم الشيطان إذا غفلت عن ربها وحكم الروح والإيمان إذا جفت الشيطان وحـاربتـه ورفضت غوايتـه والنفس ملجأ الشيطـان ينفد منها إلى كافة الجسد فإذا ضيقت عليه الخناق وذلك عن طريق الإيمان فإنه يخرج منها وإلا سيظـل يمتلك زمـام قيـادهـا يجرهـا إلى الفساد والإفساد وتزيين المحرمات والسقوط في مهاوي الشهوات.

كيف يتملك الشيطان النفس وتنقاد له؟ :

للنفس كما قلنـا ارتبـاط وثيق بالجسـد والقلب والعقل والروح، فهـذه العـلاقـة كلما تصـاعـدت وارتقت وتوطدت مع ماهو أعلى منها

سلمت النفس واستطاعت أن تحصن ذاتها من الشيطان. وكلما ضعفت علاقتها بما هو أرقى منها راح الشيطان يكبر ويكبر حتى يوقعها في الهوى فتُعمى عن الحقيقة وتنجرف مع الدونيات وبذلك يكون هلاكها.

ولما كان الجسد مادة التسيير النفسي وأداتها فإن تنفيذ رغبات الشيطان تتم عن طريق تحريك الجسد للشهوات. فيأكل الحرام ويزني ويفتك بيده ويسعى إلى الشر بقدمه ويستغيب الناس بلسانه ويسمع ما لا خير فيه للإسلام والمسلمين... الخ.

يقول تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾

ويقول تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ فذكر الله تعالى ومراقبته يمنعان النفس من دخول الشيطان ووسوسته إلى النفس أما إذا نُسي ذكر الله فإن الشيطان يصبح ملازماً للإنسان يقترن به ويصاحبه ولا يتركه ثانية إلا ويُدخل فيه حب الدنيا والحرام والشهوات.

إذاً فالشيطان حريص أن يدخل نفس الإنسان، تلك النفس المهيأة للاختيار والمهيأة لتقبل الشيطان إذا أعرضت عن تقبل الإيمان.

ويحاول الشيطان أن يجعل النفس دوماً في حالة حيرة وشك وتشكيك إلى جانب تزيينه لها المحرمات والإباحيات كالزنى والسرقة والقتل والخيانة.

يزين له المـرأة. من خلال لذتـه الجسـديـة ويعمي البصـر عن الحقيقـة فيرى الإنسـان بعينـه ما لا تراه بصـيرته، يزين له حب المال فيظل يوسوس فيه حتى يقدم على السرقة. وهكذا مع باقي المحرمات.

وكلما أبعده الشيطان عن مراقبة الله كلما غرق في الشهوات حتى يتملكــه الميـل للشـر تملكـاً كامـلاً فيهمله ويحـاول مع غيره. ومهمـة الشيطان دوماً هي غواية الإنسان وتضليله حتى يصبح كل حرام حلالاً لديه فلا يكسب الدنيا ولا يكسب الآخرة ولما كانت النفس محطة يستقر بها الشيطان شيئاً فشيئاً فإنها ذاتها تعيش حالة الشيطان في الوسوسة.

يقـول تعـالى في سورة (ق) الآيـة ١٦: ﴿ولقـد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾.

لقـد أضل الشيطان آدم وحواء من خلال إغرائهما بأكل ثمرة من شجــر الخلد فظـل يلح عليهـما حتى أزلهـما إلى الخطأ. وتـزيـين حب الشهــوات مهمـة وكـل الشيطـان نفســه بها منـذ أن غضب الله عليـه وأسقطـه إلى الأرض. . فالشيطـان يزين للعـين المنظر الحسن ولو كان رؤيـة المـرأة عاريـة فيحـرك في الإنسـان نزعة الشهوة الجنسية، ويزين للعين المال الكثير فيحرك فيه خيالات كثيرة منها بناء القصور والذهب والزينة فيمد يده ليسرق. ويحرك فيه بطنه ليأكل الحرام ويشربه.

وقد يزين الشيطان للإنسان المؤمن بعض الأشياء التي ظاهرها

إيماني وباطنها باطل قد يترك الإنسان يتعبد ويصلي ولكن ليس في وقت الصلاة فإذا تأخر الرجل عن صلاته مرة بعد مرة يستطيع الشيطان بعدها أن يؤثر فيه أكثر وأكثر حتى يلغي وقتاً من الأوقات ثم وقتين وهكذا حتى يبعده كلياً عن فرضٍ من فرائض الله .

ونتائج تملك الشيطان للنفس في الدنيا وخيمةٌ على الإنسان قاسيةٌ عليه ، فمنها الفقر بعد الوقوع في الفاحشة كالوقوع في الزنى ولعب القمار والقتل . يقول تعالى : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ .

وقد قال أهل المعرفة أسوأ المعاصي حديث النفس . والمقصود بذلك اختلاط وسوسة الشيطان برغبة النفس المادية والجنوح نحو الحرام ونحوما لايرضى رب العالمين روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ [إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فإن نزع واستغفر وتاب صقل ، وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه] ، قال الله تعالى : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ .

لقد أقسم إبليس (الشيطان) أنه ليغوينّهم أجمعين إلا المخلصين من عباده وقد بين لنا القرآن الكريم أن الشيطان بدأ عداوته مع آدم وحواء ومن ثم أبنائهما . لكن الله سبحانه بيّن لنا الطريق التي تمكّننا من الإفلات من براثن هذا العدو . وقد وضح القرآن الكريم ـ كما سبق وقلنا ـ أنه ليس من نتيجة اتّباع الشيطان إلا الفقر والإملاق في الدنيا والآخرة والحسرة والندامة حين يتنصل الشيطان من كفر الناس ويقول

لهم عندما يُحكم عليهم بالعذاب: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ الأية ٢٢ سورة إبراهيم.

والذي يجعل الإنسان في غرابة من أمره أن هذا الشيطان الذي التقى بالنفس وطغاها وجعلها تنحرف هو نفسه الذي يتخلى عن الإنسان عند النتائج إن كانت دنيوية أو أخروية. ففي الدنيا تكون عقوبة القاتل بلا مبر ر شرعي القتل. فهل ينقذ الشيطان هذا الإنسان من حبل المشنقة أو الإعدام؟ وإذا زنى وحملت منه المرأة التي زنت معه فهل ينقذه من العقوبة ذلك الشيطان، وهل تخفى جريمته بل بالعكس قد يزين الشيطان له طريقة للتخلص من الجنين فيقتل. وقد تموت المرأة بسبب ذلك فيكون الشيطان قد بدأ معه بإغوائه وتزيينه شهواته ثم ارتكاب معصية الزنى ثم القتل وبعد كل ذلك لا يجد له من ولي ولا من نصير.

وكم من حادثة عصرية تحدث كل يوم يكون نتيجتها إيصال الإنسان إلى المهالك وكل ذلك باتباع مازيّنته النفس وما زينه الشيطان للإنسان. وعدم سيطرة العقل وتحكمه في توجيه حياة النفس الوجهة الصحيحة التي فيها إنقاذ الفرد والمجتمع من السقوط في مهاوي التخلف والأخلاق السيئة والانحدار.

* النفس والهوى:

في مجمل آيات القرآن الكريم نجد أن النفس تقترن بالهوى تحديداً. فلم نجدها تقترن بأقل منه لأن مجاله هو المجال الذي يودي إلى انحرافها وهلاكها.

والهوى هو أشد سيطرة على النفس من الحب أو العشق أو الميل. ولو كان أقل قوة من هذه المفاهيم والمؤثرات لما انحرفت النفس ذلك الانحراف الكلي عن شرعة الله. والهوى هو أن يستهوي الإنسان شيء فيسيطر على نفسه بحيث لا يسمح له أن يفكر أو يعقل فينقاد وراء النفس انقياد الحيوان الأليف وراء صاحبه.

وقد قال المثل (الهوى يعمي ويصم) أي أن الإنسان يفقد معرفة طريق الصواب من الخطأ ويفقد سماع النصيحة، وتختلط على صاحب الهوى، فيصبح الشر خيراً والخير شراً. ولذلك وجدنا القرآن الكريم عندما يقرن النفس بالهوى يؤكد على أن النتائج لسيطرته عليها تكون وخيمة جداً منها الاشراك والضلال والضياع.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية ٨٧: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ والخطاب لبني إسرائيل كما هو واضح في سياق سورة البقرة.

فنفوسهم تهوى عبادة غير ربهم وتهوى زيادة المال عن طريق

الـربـا وتهـوى الـزنى والاعتـداء على النسـاء . ويحللون قتـل النـاس ويستعلون عليهم . فكلما جاءهم نبي أو رســول يرفض هواهم وميـل نفوسهم الدائم نحو الشر قتلوه أو نفوه أو عادوه .

يقـول تعـالى في سورة النجم ٢٣ ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ .

فهـذه الآيـة دمـغ لحجج المشركين الذين يدافعون عن آلهتهم ، اللات والعزى ومناة وغيرها . فدفاعهم ضعيف إلى حد التلاشي لأن هذه الآلهة ما هي إلا أصنام أطلقوا عليها الأسماء من مخيلتهم . فكان الـدافـع لذلـك اتبـاع الظن واتبـاع ما تهوى به أنفسهم . ونلاحظ هنا اقتران هوى الناس بعبادة الأوثان والأصنام التي لا يتقبلها عقل أو فكر أو روح . إن هذه العبـادات الـوثنيـة عبـادات جاهلة متخلفـة ولو كان للعقل دور في تحديد المعبود لما عبدوها . ولكن الدور الأكبر كان للنفس وهـواهـا ، ومـا جاء بهم الآباء الجاهلون . فهوى النفس أودى بهم إلى عبادتها المتخلفة جداً ونتيجة ذلك ستكون وخيمة عليهم من حيث أن العـاقلين يسخـرون بهم ومنهم ، ثم يسخرون هم من أنفسهم لا سيما بعـدمـا سقطت الأوثـان وعبادتها ولم تغن عنهم . ومن ظل على عبادتها ومات مات جاهلاً مشركاً لاكسب دنياه ولا آخرته

ويقـول تعـالى في سورة المؤمنـون الآيـة ٧١ : ﴿لـو اتبـع الحق

أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾.

إن الله سبحانه الذي خلق الكون ودبره ووضع فيه ملايين القوانين التي تضبطه لم يكن ليشاور أحد في خلقه وهو المنزه عن كل تشبيه. فلو ترك خلق السموات والأرض لأهوائهم. أو لما تأمرهم به خيالاتهم ونفوسهم لخربوا كل مخلوق في هذا الوجود من سماء وأرض وحيوان ونبات. وعلى ذلك نسأل لو أن الله ترك خلق السموات والأرض للبشر فماذا يمكن أن يحدث؟ لا يتفق اثنان على صيغة واحدة وقانون واحد وعليه يترتب عدم الخلق من أساسه لأن أهواء الناس تتنوع وتتعدد بقدر ما يتعدد بنو الإنسان. ولو ترك الله لهم ذلك لأفردوا من في السماء ومن في الأرض. غير أن الله سبحانه أنزل قرآنه ليكون هدى لهم وشرفاً وفخراً وعزاً. قال تعالى في سورة الزخرف آية ٤٤: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ أي شرف لك ولهم. فهم في غنى عن هذا الاتباع للهوى ويكفيهم هذا الكتاب ففيه فخرهم وعزهم.

وقد بين القرآن الكريم وحذر نبيه من اتباع أهواء الذين كفروا. فهم يريدون الضلالة ولا يريدون الاستقامة واتباع ما أنزل من الله سبحانه على رسوله. يقول الله تعالى في سورة ص الآية ٢٦: ﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ فاتباع الهوى في الحكم بين الناس ضلال ودمار وتدمير فقد يستهوي

الإنسـان حبـه لأحد المتخاصمين فيحكم بغير الحق فيكون بذلك نفذ حكم هوى النفس وأطـاع الشيطـان فالخطاب للرسول ﷺ وهو أيضاً خطـاب لكـل مسلم موحِـد. ودرس للحـاكم والقاضي والفاصل بين النـاس فالهـوى إذا سيطـر على الإنسـان في حالة الحكم لن يعدل وفي ذلك انعكاس سلبي على الناس وعلى التعامل الإسلامي في المجتمع بل في ذلك خيانة لتعاليم الله الكريم العادل.

ويقـول تعـالى في سورة الأنعـام الآيـة ١٥٠: ﴿قـل هلمّ شهـداءكم الـذين يشهـدون أن الله حرم هذا فإن شهـدوا فلا تشهـد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤ منون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾.

الخطـاب هنـا لرسـول الله يأمـره رب العزة أن يطلب من الذين حرّفـوا كلام الله أن يأتـوا ويشهـدوا أن الله حرم عليهم كذا وكـذا. ويطلب منـه أنـه حتى إذا جاؤ وا وشهـدوا فلا تشهـد معهم لأنهم في شهادتهم لا يتبعون إلا أهواءهم لأنهم كفروا بالله وبرسله وكذبوا بآيات الله وتنـزيله. وكفـروا بأن هنـاك بعث ونشـور. فاليهـود لم يؤ منوا بيوم القيـامـة ولن يؤ منـوا لأنهم مِطـواعين لأهوائهم وليس لعقولهم والإيمان المفترض أن يكون فيهم.

فاتبـاع الهـوى من قبـل أهـل الكتـاب يودي بهم إلى الكـذب وشهادة الزور والقول بالافتراء فكيف يؤمن لهم رسول الله ﷺ وكيف يؤمن لهم المسلم الموحد المتبع دين الله ويؤمن بيوم الآخرة؟.

إن الأهــواء تجرُّ الإنسـان إلى فعـل أي شيء منكـر. تجرُّه إلى الكذب والبهتان وتجرُّه إلى نكران الله ورسله واليوم الآخر بل إنها تجرُّه إلى شنن الحــرب على كل ما هو خير ومــا هو صالـح في الأرض. إن الأهـواء لها غايـة كبرى هي تدمـير ماعمّره الإنسان وما يسعى إليه من سعادة الدنيا والآخرة.

وقـد أشـرنا أن من نتائج الهوى الاشراك بالله فبعض الناس من الـذين وصفهم القـرآن جعلوا شهـواتهم غاياتهم وحب الدنيا وملذاتها مقاصدهم. وذلك كله بسبب طغيان هواهم على ما عداه من تأثيرات الروح والقلب والعقل وما شابهها.

يقول تعالى في سورة الفرقان الآية ٤٣ : ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ فلا فائدة من هذا الإنسان الذي أصبح ربه هواه وليس رب العالمين لقد سيطر الهوى على كل شيء فيه حتى بات مشغولاً بشكل كلِّي عن الخالق القادر. وقد اقترن الهوى بالاتباع فنهى الله سبحـانـه رسوله والمسلمين من اتباع الهوى لأن فيه الضلال، ونهى عن اتباع أهواء أعداء الله والدين لأن في ذلك مخالفة لأمر الله.

يقـول تعـالى في سورة الجـاثيـة الآيـة ١٨ : ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾.

لقـد جعـل الله رسـوله على شريعة واضحة المعالم فهي من ربّ العـالمـين وعلى المسلم اتبـاعهـا وعـدم اتباع أهواء الجاهلين الذين لا

يعقلون ويفكـرون بل عطلوا ملكـة العقل والعلم فلا فائدة تُرجى من اتبـاعهم لأن في هذا الاتبـاع سير على طريق مخالف تمامـاً لتعاليم الله وسبيله القويم .

ويقـول تعـالى في سورة البقـرة الآيـة ١٢٠ : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ .

وتـرتبـط هذه الآية بمضمون الاتباع فقد اتبعت يا محمد شريعة الله ليس من خلال الجهـل ، بل من خلال العلم الـذي علّمـك إيـاه ربـك فإن اتبعت أهـواء الـذين ضلوا بعـد ما جاءك علم الله وحـدود شريعتـه فإن الله لا ينصـرك ولا يكون مولاك فأهواؤ هـم ضلال ونوازع نفـوسهم انحـراف . وهـم يتّبعـون هواهم الـذي ليس فيه سوى حكم الانحراف والضلال .

ويقـول تعـالى في سورة المـائدة الآية ٥٠ : ﴿ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك﴾ .

ويتضح أمر الله بعدم اتباعهم لأن في ذلك اتباعاً لأهوائهم ويزيد في ذلـك بأن طلب الحـذر منهم ومن أهوائهم التي يقصدون من ورائها فتنة وانحرافاً عن بعض ما نزّل الله من آياته الكريمة .

ويقول تعالى في سورة المائدة الآية ٥١ : ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ وهـذا أيضـاً تأكيـد على ما ورد في الآية التي سبقتها والحق هو كلام الله الذي أنزله على قلب نبيه الكريم محمد ﷺ .

ويصف الله الكـافـرين المعـادين لله وتعـاليم دينه ونبيه في آيات كثيرات وهذا الكفر الذي تلبّسهم لم يكن إلا بسبب اتباعهم أهواءهم وسيطرة نفوسهم عليهم بما في ذلك من حب لظواهر الدنيا وزيفها.

يقـول تعـالى في سورة الروم الآية ٢٩ : ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾.

إن اتبـاع الهـوى سببـه الجهـل وعـدم تحكيم العقـل في الأمـور والركون إلى نوازع النفس وميلها نحو الدونيات. ومن تلبسه هواه فقد أضله الشيطان والله لا يريد لهم إلا أن يكونوا أصحاب علم وعقل ونبذ للأهواء ولكنهم أضلوا فلن يجدوا ناصراً يحميهم ولا ينقذهم من نتيجة أعمالهم التي منها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

ويقـارن القـرآن الكـريم بين من اتبـع هواه وبين من قمع هواه وهـذب نفسـه فذاك سلك طريق الشـر والشيطـان وهـذا سلك طريق الهدى والرحمن.

يقـول تعـالى في سورة محمـد الآية ١٤ : ﴿أفمن كان على بيّنة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾.

فالذي زيّن الشيطان عمله لا بد أن يكون قد اتبع هواه لأنه لا يمكن للشيطـان أن يزين عمـلاً إلا ويقصـد من ورائه الفتنة والابتعاد عن طريق الله وتعاليمه.

ويصفهم الله بقوله في سورة محمد الآية ١٦ : ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهـم واتـبعـوا أهـواءهم﴾ إذاً فهؤلاء غلّقت قلوبهم وطبعت

بطابع السواد والكفر والضلال كونهم اتبعوا أهواءهم التي ليس فيها سوى الضلال.

ويحدد الله سبحانه عدم استجابة المشركين لدين الحق بأنهم اتبعوا أهواءهم فكل من لم يسر في طريق القرآن الذي وضّحه الله فإنه ركن إلى هواه لأن الهوى من النفس والنفس مطواعة للشيطان والشيطان لا يريد لهؤلاء أن يتبعوا القرآن أو يتبعوا محمد ﷺ.

يقول تعالى في سورة القصص الآية ٥٠: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتعبون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله. إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

فالذي يتبع هواه بغير هدى من الله هو أضل الناس وأكثر عداوة للقرآن وأشد حقداً على الطريق القويم الذي يحبه الله لعباده.

والرسول عليه الصلاة والسلام يخاطب الكافرين كما قال القرآن الكريم بأنه إن اتبع أهواءهم فقد ضل فهو لن يحيد عن طريق ربه ولو لاقى كل المحن والمصائب في سبيل تبليغ رسالة السماء القرآنية.

يقول تعالى في سورة الأنعام الآية ٥٦: ﴿قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾.

والقرآن الكريم يُخاطب المسلمين المؤمنين ويحذّرهم من اتباع أهوائهم في العدل بين النساء. والله يعرف أن النفس البشرية تميل بهواها ولذلك حذّر الله من اتباع الهوى لأن في ذلك ظلماً ولا يريد الله أن يكون عبادُه ظالمين يقول تعالى في سورة النساء الآية ١٣٥: ﴿فلا

تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ .

فلينتبه المؤمنون من الميل مع الهوى ويلحذروا لأن في ذلك إثماً وظلماً وانحرافاً .

ويقول تعالى في سورة الأنعام الآية ٧١ : ﴿قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قلْ : إن هدى الله هو الهدى . وأُمِرنا لنسلم لرب العالمين﴾

فهذه الآية التي يُخاطَب بها الرسول ﷺ توضح لنا كيف تستهوي الشياطين نفس إنسان فتجعله حيران . فيا محمد قل لهؤلاء المشركين عبدة الأصنام أندعو إلى عبادة غير الله؟ أنعبد الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؟ ونرتد على أعقابنا بعد أن هدانا الله؟ إننا إذاً سنصبح مثل الذي استهوته الشياطين فألقته في أرض فلاة مترامية الأطراف . فهو حيران لا يدري أين يذهب وماذا يفعل له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ولكن الهدى هو هدى الله . ودين الإسلام هو الهدى والنور وما عداه ضلال وكفر . إننا أمرنا أن نسلم وجوهنا لله وننفذ أوامره .

إن استهواء الشياطين لأحد البشر هو تسلط كامل عليه لا ينفكّون عنه . ومن طبيعة الشر إذا استهوى أحداً فإنه يتلبسه ويعميه عن الحقيقة .

وقال تعالى في سورة المائدة الآية ٧٧ : ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضُلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ .

وهنا يخاطب الله رسول محمد ﷺ ويطلب منه أن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لا تغلوفي دينكم غير الحق ولا تتبعوا الغلو الباطل وتتجاوزوا حدود الدين والمنطق . وغلو النصارى رفع عيسى عليه السلام إلى مصاف الإله وغلو اليهود قولهم إن عيسى ابن زنى . وكلاهما تجاوزا الحد فذلك غلو في الباطل .

ولا تتبعوا (والخطاب لليهود والنصارى الذين كانوا زمن النبي ﷺ) أهواء من قبلكم من اليهود والنصارى لأن ما صنعوه من التوراة هو تجديف على الله وتبديل لكلام التوراة والانجيل . فالهوى الشخصي والمصالح الشخصية جميعها دفعتهم لاتباع أهواءهم وليس لاتباع الحق ودين الحق .

لقد أضل هؤلاء المحرفون والمبدلون لكلام الله كثيراً من الناس ممن شايعهم وسمعوا منهم وقد انحازا عن الطريق السوي المستقيم قبل بعثه محمد ﷺ وبعدها لأنهم كذبوه وناصبوه العداء وبغوا عليه .

وأخيراً يقول تعالى في سورة النجم الآية ٣ ـ ٤ : ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ .

إن الذين كذبوا الرسول ﷺ ليس لهم حجة وبرهان على أن القرآن غير منزل من عند الله . فالرسول لا ينطق بهذه التعاليم بدافع

الهوى الشخصي إنما القرآن يأتيه عن طريق الوحي منزلاً من عند الله فيه التشريع وفيه الحياة وفيه ما يوافق العقل والروح وليس هو من صنع بشر إنما من الله تعالى .

*** أساليب كثيرة وغايات مختلفة :**

يرد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن مجالات عمل النفس وسمات هذا العمل . فحسب لون الموقف الذي نجده عند الإنسان أي إنسان يأتي عمل النفس متطابقاً لهذا الموقف من حيث القوة والضعف ومن حيث الكبر والصغر وحسب نوع الخطاب ونوعية المخاطب إن كان كافراً أو منافقاً أو مؤمناً أو مقصراً . وكل هذه المواقف تستدعي صفة خاصة تطلق على ما تقوم به النفس وهي في تلك الحالات المختلفة المتنوعة . ولا شك أن للشيطان ارتباطاً بالنفس في حالاتها التي تتقلب وتتلون من موقف إلى موقف وبطبيعة قوة الإيمان وضعفه فإن مجال عمل النفس يكبر أو يصغر يطغى أو يتلاشى وكذلك مجال عمل الشيطان الذي تحدثنا عنه سابقاً .

يقول تعالى في سورة يوسف الآية ١٨ : ﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ .

فهنا نرى النفس البشرية تسوّل للإنسان أن يفعل أمراً . ونحن نعلم أن إخوة يوسف كادوا له ولكن كان كيدهم دون القتل وسببه

الغيرة والحسد بسبب حب والده له أكثر منهم. فقد جرّتهم النفس إلى اتخـاذ قرار أن يضعـوا يوسف في الجب عسى يلتقطـه بعض المسـافرين وبـذلـك يخلو لهم وجـه أبيهم ويتقـربـون منـه ويجعلونه يتقرب منهم. وكانت النتيجة هي حكم الله في يوسف ليمكنه من صلاحه ويجعله نبياً صابراً ثم ليفضح سوء عمل إخوته في نهاية القصة ومن ثم عودة إخوته إلى صوابهم وإلى لوم أنفسهم لومـاً شديـداً لما اقـترفوه في حق يوسف أخيهم وهنــا ينطبق على نفـوسهم قولـه تعـالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾ وهي درجة وسطى بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء.

فبعـد أن كنت نفـوسهم أمّـارة بالسـوء أراد لهم الله أن لا يظلوا على هذه الصفـة فقـد أرتقـوا درجة بعد أن اعترفوا بذنبهم وطلبوا من أبيهم أن يستغفـر لهم ربــه. والـرقي من النفس الأمـارة بالسـوء إلى النفس اللوامة يحتاج الاعتراف بالذنب وغسل الذنب بالدموع والعودة والتوبة النصوحة في جادة الصواب.

ويقـول تعـالى في سورة البقـرة الآيـة ١٨٧: ﴿أحـل لكم ليلة الصيـام الـرفث إلى نسـائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنـكم كنتم تختـانــون أنفسكم فتـاب عليكم...﴾، يخاطب الله سبحـانـه أصحاب النبي ﷺ فيبينّ لهم حدود حرمة الصيام والإفطار. وقـد وقـع بعض الصحـابـة في خطأ الجـماع مع نسائهم بعد أن يصلوا العشـاء وينـاموا وقد كان معروفاً أنه إذا صلى المسلم عشاءه ونام اعتبر

صائماً. فقد يشتهي الرجل زوجته فيأتيها رغم ما حدده الله من حدود لذلك فقال لهم إن الله يعلم أنكم كنتم تعرضون أنفسكم للعقاب من خلال قوله تختانون والإختيان أبلغ من الخيانة. وقد نزلت الآية لتبيح للمسلم أن يأكل ويشرب ويأتي زوجته في أي وقت يشاء من الليل حتى يتبين الخيط الأبيض من الفجر من الأسود في الليل. فالاختيان هنا مخادعة النفس سراً أي دون علم أحد لكن الله الذي يعلم السر وما يخفى بيّن للمسلمين خفايا نفوسهم حتى وهي في أشد حالات أسرارها.

ويقول تعالى في سورة الحديد الآية ١٤: ﴿ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور﴾. حوار بين المؤمنين أصحاب الجنة وبين الكافرين أصحاب النار. جاء رد أهل الجنة على أهل النار من خلال إظهارهم سوء أعمالهم وأول هذه الأعمال فتنة النفس لقد فتنتم أنفسكم وأدخلتموها في طرق الفتنة والضلال والانحياز عن طريق الله لقد خامركم الشك وظننتم أنكم بأمانيكم تكسبون رضا الله وجنته حتى جاء وعد الله وأمره فانتبهتم ولكن لا حياة لمن تنادي بعد إذ جاءته البينات من الرسل وأُنذر وظل على فتنة النفس وإغوائها.

ويقول تعالى في سورة النجم الآية ٣٢: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾.

فتـزكيـة النفس في هذه الآية تعني أن يرشح نفسه للفوز برضوان الله ويـدعي أن نفسـه صافيـة من الشـوائب ومن تلبس الشيطان. فلا تدّعـوا أن نفـوسكم طاهـرة ولا تزكـوهـا فالله الـذي خلقكم هو أعلم بالذي يتقي الله ويخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى.

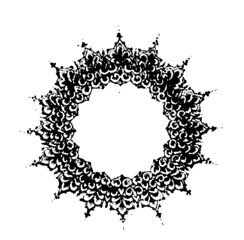
ويقـول تعـالى في سورة البقرة الآية ٢٣٥ : ﴿ولا جناح عليكم فيـما عـرضتم به من خطبـة النسـاء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾.

أو أكننتم في أنفسكم : أضمـرتم في نفـوسكم قصـد نكاحهن. وأكنن الشيء أخفاه لكن الكلمة هنا تأخذ أبعاداً فيها من السر الإلهي مايـدهش. في تعني الإخفـاء والإكنـان لما تجول به الخـواطـر حول مواضيـع شبيهـة كطلب النكـاح من المـرأة التي توفي زوجهـا وأكملت عدتها.

وقال تعالى في سورة الفرقان الآية ٢١ : ﴿وقال الذين لا يرجون لقـاءنـا لولا أنـزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتـوا عتـوّاً كبـيراً﴾ فالاستكبـار في النفس هو رفـع النفس إلى غير موضعها، والذي يرفعها ويستكبر بها لا يريد لقاء الله ويطلب من الله أن ينـزِّل عليهم ملائكـة أو أن يروا وجـه عزّته فالنفس محطة الاستكبار والعتـوِّ والتجـبر. والعقـل لا يستكـبر بل يتـواضع كلما اكتشف بعلمه أسراراً من معجزات الله. إنما النفس تعلو بصاحبها ويعلو بها في سراب مؤداه الكفر ورفض الخالق فهؤلاء هم الكفار الجبارون.

ومن صفـات النفس النجـوى والحـديث في السـر. ولـو ناجى الإنسان ربه في الخير لكان سعيداً مرضيًا ولكنهم يناجون ذواتهم بالاثم والعــدوان والله كاشفهم وكـاشف نجـواهم : يقـول تعـالى في سورة المجـادلـة الآيـة ٨ : ﴿ألم تر إلى الـذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنـه ويتنـاجـون بالإثم والعـدوان ومعصيـة الـرسول وإذا جاؤ وك حيـوك بما لم يحيّـك به الله ويقـولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾.

لقد نهاهم الله عن النجوى بالإثم ولكنهم عادوا يتناجون لأنهم منافقون، إن نجواهم ليست في الخير إنما هي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. يغتابونك يامحمد (ﷺ) وإ ذ جاؤ وك حيّوك بما لم يحيّك به الله لأنهم كاذبون بوعيد الله فجزاؤ هم جهنم وبئس العاقبة والمصير.



خاتمـــة

القرآن يدعو إلى تهذيب العواطف لا قمعها

عنـــدمـا خرج علماء النفس وعلى رأسهم اليهـودي الصهيـوني (سيغمـــونـد فرويـد) اخـترعـوا ما يسمى بالتحليـل النفسي وراحـوا يشيعيون أن للإنسان عقداً نفسية ما إن يقع فيها حتى تنحرف سويته، وقد أسهم فرويد إسهاماً كبيراً في إرجاع جميع التصرفات الإنسانية إلى دافع (الليبدو) أي الجنس وادعى أن الطفل الذي يرضع من ثدي أمه ويلتصق به يقـوم بذلـك عن طريق خفي هو طريق دافع الجنس. وقد اخترع أمثلة كثيرة ليبرهن على تخيّله النفسي الذي ضجت به أوساط الطب والعلوم في العـالم الغـربي كله. وقـد لحق عالمنـا العـربي ذلـك التخيـل حتى بتنـا لا نرى فيـه إلا كلامـاً مقدساً، وراح بعضنا يتلفظ بكلماته ونظرياته كأنها منزلة من السماء.

ولـو عدنـا إلى قرآننـا العظيم لوجدنا كل ما تتطلّع له عقولنا من تحليل للنفس البشرية لا يستطيع البشر أن يأتوا بجزء من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

قالوا عن العقد النفسية وقالوا عن الانفصام في الشخصية وقالوا

عن العلاقات الاجتماعية التي تحكمها أساليب التحايل النفسي وما شابه ذلك من مصطلحات قد لا نجدها إلا في التنظير وليس لها على أرض الواقع من وجود.

ومن خلال نظراتهم المغلوطة راحوا يدسّون في كافة الأوساط أن الدين الإسلامي يقمع العواطف ويقهرها لأنه يقمع النفس ويقهرها.

وحقيقة الأمر أن القرآن الكريم لم يدعُ إلى قهر العواطف أو كبتها بل دعا إلى تهذيبها والصعود بها عن التدمير الإنساني بل والارتقاء بها إلى أسمى معانيها والنفس الإنسانية لم نر آية واحدة من القرآن الكريم تدعو إلى قهرها أو كبتها بل جاءت جميع الآيات المتحدثة عن النفس بعيدة كل البعد عن قهر النفس وإذلالها إذا كانت تسير في استقامة الروح وضمن نظم حياتية لا يُضر بها إنسان مهما كان جنسه ذكراً كان أم أنثى.

جاء علماء الغرب بنظراتهم حول الإنسان ناقصة وأحياناً قاتلة فمنهم من قدّس العقل وألقى النفس في الحضيض ومنهم من قدّس الفردية والذات ونحّوا العقل جانباً فتاهوا في المثالية (الرومانسية) التي دمرت المجتمع ومجّدت الفردية غير أن القرآن الكريم جاءت نظرته شمولية متكاملة لأنه منزل من عند الله عز وجل وجاء رسول الله محمد ﷺ ليوضح بشكل مفصل ما للإنسان وما عليه. فلا عقد ولا (ليبدو) ولا جنس ولا انفصام. هناك تعقيد وهنا وضوح. هناك طرق مليئة

بالشـوك وهنـا طرق مستقيمـة واضحـة أوصى بسلوكها القرآن الكريم ونبي الله .

وإذا راجعنـا قرآننـا العظيم لفـوجئنـا في كل مرة نقـرأه بها لأنـه أعطى كل شيء حقه دون نقصان . تحدث عن الإنسان ككل وتحدث عن العقـل والـروح والنفس والجسـد وبـين طرق سلامتهـا في الـدنيا والآخـرة دون كبت أو قهـر لقد فهم المسلمون كيف يصلحون النفوس إذا انحـازت عن طريق الخـير وعـرفـوا كيف يهذبـونهـا إذا ما شطت بنوازعها إلى التدمير الاجتماعي والفردي .

لقـد أدركـوا أن بين القلب والنفس محادثـات وصـراعات فكلما انطلقت النفس في شيء بهواهـا من القـول أو الفعل تأثر القلب بذلك وتكـدر وهـذا ما سماه العلماء بتبكيت الضمير فإذا استطاع الإنسان أن يرفض الافـراط أو التفـريـط وميـل النفس إلى الجنوح وعاد إلى جادة صواب الحق وطـريق الله . يأخـذ القلب دوره في لوم النفس ومعـاتبتها وذكرها بفعلها فإذا بها تعود شيئاً فشيئاً إلى طريق الحق .

وطـريق سعـادة النفس عنـد المسلم هو في طهـارتها عن خدش الهـوى والاقبـال على الـدنيـا إقبـالاً كلياً . ومع الطهارة والابتعاد عن الهوى والدنيا لا بد من الترفع عن الحقد والحسد والغل وقد ورد أنه من آوى إلى فراشــه لا ينـوي ظلم أحـد ولا يحقـد على أحـد غفـر له ما اجترم ، وإذا طهرت النفس عن الرذائل انجلت مرآة القلب .

ومعروف أن الجموح والغرور والتكبر هي من طبيعة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النار وطلب الاستعلاء. فالقرآن يرشدنا إلى أن دواء النفس هو التواضع لأن الكبر هو ظن الإنسان أنه أكبر من غيره. . . والتواضع ليس ذلاً للنفس ولا قمعاً لها أو قهراً بل هو تهذيب لها حتى تستقيم وقد قال تعالى: ﴿ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ وقال تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره﴾.

وقال بعض العارفين: للقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح وللنفس وجه إلى القلب ووجه إلى الطبع والغريزة. فالقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله ويكون ذا وجهين وجه إلى الروح ووجه إلى النفس فإذا ابيض كله توجه إلى الروح بكله فيتداركه مدد الروح ويزداد إشراقاً وتنوّراً وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب وكلما انجذبت توجهت إلى القلب بوجهها الذي يليه وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذي يلي القلب وعلامة تنورها طمأنينتها قال الله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ وبقاء شيء من الظلمة على النفس يكون بسبب وجهها المتوجه نحو الغريزة والطبع، وإذا تنور أحد وجهي النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق.

ونفهم من ذلك أن الروح يرشد القلب والقلب يرشد النفس

والنفس توجه الجسد وإذا ماتم العكس وسيطرت شهوة النفس على الجسد وأثرت على توجه العقل انحدر الإنسان إلى السلوك السيء وحب الشهوات وتحليل الحرام وبذلك يكون قد وقع تحت سيطرة العقد النفسية التي وصفها العلماء وتحدثوا عنها. إذاً فالعقد النفسية والانفصام والتماهي والعدوانية ليست موجودة في عالم القرآن الكريم وليست موجودة في دنيا المسلم أو نفسه إنما هي عقد موجودة في نفس الظالم ميّت القلب والضمير والروح ميّت الإيمان والتقوى والخوف المشروع من عظمة الخالق عز وجل.

إن الإسلام يحث على الحب والتضحية والإيثار لكنه يمنع الزنى والسرقة والاعتداء على الضعفاء.

إن الله سبحانه خلق الذكر والأنثى ليكونا زوجين صالحين وخلق بينهما الرحمة والمودّة. فهل خلق علماء النفس رحمة ومودة بين الأزواج في الغرب هل خُفضت نسبة الطلاق في الغرب التي بلغت حداً فُقدت فيه كل القيم الإنسانية وهل نسمي الإباحية الجنسية في الغرب حرية للنفس وعدم كبتها؟

أين وجدت العقد النفسية؟ هل وجدت في الغرب أم في الشرق؟ هل وجدت لدى هؤلاء الذين تحللوا من كل دين ومن كل حرام أم وجدت عند من تمسكوا بالقرآن والإسلام وعرفوا حدود الحرام والحلال؟

لننظر إلى ما وصى به رسول الله محمد ﷺ معاذاً والمسلمين:
[أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة، وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان والتفقه بالقرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح، وإياك أن تسب حليماً أو تكذّب صادقاً أو تطمع آثماً أو تعصي إماماً عادلاً أو تفسد أرضاً. أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر وأن تحدث لكل ذنب توبة. السر بالسرّ والعلانية بالعلانية. بذلك أدّب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب](1)

فمن أين تأتي العقد النفسية بعد الذي تقرأه في كتاب الله عز وجل وفي أحاديث نبيه ﷺ؟

وسئل الرسول ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس النار فقال: [الغم والفرح] يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجّر وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى: ﴿إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أما الفرح بفوز الآخرة فهو محمود ينافس فيه قال الله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾

---

(1) صحيح البخاري، والتاج الجامع للأصول.

لقـد منّ الله على الإنســان بالعقـل والقلب والـروح والنفس والجسـد. فهي أجـزاء تكوّن الإنسان. وقد كرّم الله الإنسان وخلقه في أحسن تقويم وأحسن صورة وعلمه مالم يعلم. وحثه على طلب العلم ودوامـه، ووضـع له منهجـاً خاصـاً يسـير على هواه، وبينّ له القواعد التر بوية التي تنقذ نفسه من المهالك والدمار ومنحه الاستخلاف على الأرض. فهـو مكلف بإعـمار الـدنيـا مع تنفيـذ أوامر الله بإقامة العدل فيهـا، وربـط كل ذلـك بالإيمان. فبالعقل يؤ من الإنسان وعن طريقه يصــل إلى حقــائق عظيمـة. وبـالنفس يتعلم أين الاستقـامـة وأين الانحـراف، ولـو ربـط الإنسان كليّته بمسألة الإيمان لأدرك وفهم ماذا يعنيـه القـرآن الكـريم بقـوله تعالى في سورة الذاريات آية ٥٦ : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وإذا كان هذا هو الإنسان المؤ من بالله فعليه إقامة العدل وعدم الركون للهوى وعليه أن يقيم المساواة بين الرجل والرجل الرجل والمرأة لأنهم جميعاً خلق الله متساوون في الحقوق وفي الواجبات.

ونظـام الله في خلقـه يقتضي الحرية حرية الفكر وحرية الدين. وتنظيم النـوازع البشـريـة وتهـذيب النفس كي تكـون دوماً في الطريق الصحيح الذي رسمه الله للإنسان المسلم.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة